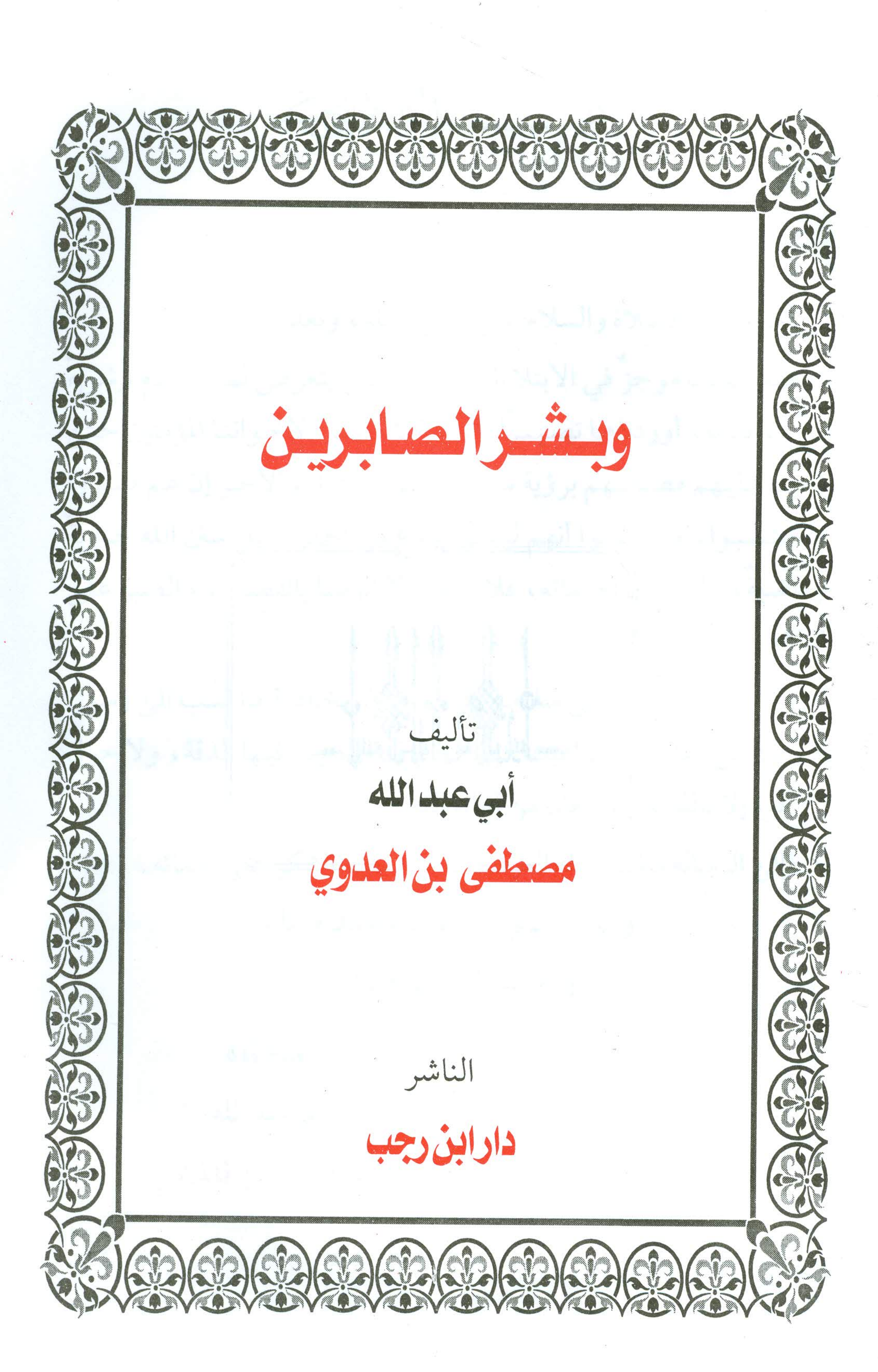
صور من الابتلاءات والمحن
وشيء من فوائدها

وبشر الصابرين

تأليف فضيلة الشيخ
مصطفى بن العدوي

دار ابن رجب



وبشر الصابرين

تأليف

أبي عبد الله

مصطفى بن العدوي

الناشر

دار ابن رجب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد

فهذا بحثٌ موجزٌ في الابتلاءات والفتن التي يتعرض لها بنو آدم وشيءٌ من فوائدها، أوردناها تصبيراً وتسلية لأنفسنا ولإخواننا المؤمنين حتى تهون عليهم مصائبهم برؤية ما أُعد لهم من عظيم الأجر إن هم صبروا واحتسبوا، وليعلموا أنهم ليسوا ببدعٍ من الخلق، بل سنن الله جاريةٌ وماضيةٌ، ولا مبدل لكلماته، فلا يسعنا إلا الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء وشكر النعماء.

هذا وقد حرصت على سلامة المادة العلمية، خاصة ما نسب إلى رسول الله ﷺ من أحاديث، فراعيت فيها الصحة، وتحريت فيها الدقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والمستعان من أعانه الله.

فإلى الرسالة سائلين الله العون والصبر ومزيد الشكر على نعمائه.

وصل اللهم على نبينا محمد وسلم

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوي

حتمية الابتلاء

الابتلاءُ والاختبارُ في هذه الدنيا أمرٌ لازمٌ وحتمٌ لأهلها إذْ هذا من مقاصد الخَلْق.

* قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧].

* وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧].

* وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

* وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

* وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وهذه الابتلاءات ـ عافانا اللهُ والمؤمنين من كل مكروهٍ وسوء ـ تعم الصالحين والطالحين على السواء:

* قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

*** ثُمَّ إنَّ أشد الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمْثَل فالأمْثَل:**

«يُبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان في دينه صلابةٌ زيد في البلاء» قاله النبي ﷺ (١).

* ولذا فلما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يا رسول الله، إنكَ توعَكُ وعْكًا شديداً، قال: **«أجَل، إني أوعَكُ كما يوعَكُ رجُلان منكم»**. قلت: ذلك بأن لك أجرين. قالَ: **«أجَل، ذلكَ كذلك، ما**

---

(١) وسيأتي بلفظه إن شاء الله.

من مُسلم يُصيبهُ أذى - شَوكة فما فوقها - إلا كفَّرَ الله بها سيِّئاته ، كما تَحُطُّ الشجرة ورَقَها»[١] .

ثُمَّ إنَّ الناظرَ في كتابِ اللهِ عزَّ وجل ، والمتأملَ في سيرةِ رسولِ اللهِ ﷺ والمتتبعَ لِسِيَرِ أهلِ الفضلِ والصلاحِ وغيرِهِم يرىٰ بوضوحٍ وجلاءٍ أنهم جميعًا قد ابْتُلوا واخْتُبِرُوا وأن الابتلاءاتِ والاختباراتِ قد تعددتْ وتنوعتْ وها نحن نسوقُ هنا - بمشيئةِ اللهِ - أمثلةً من الابتلاءاتِ التي تعرَّضَ لها الأنبياء وأهلُ الفضلِ والصلاحِ لعلَّ مدكرًا أن يدّكرَ ومتعظًا أن يتَّعظ فالذكرىٰ تنفع المؤمنين والاشتراكُ في المصائب يُهَوِّنُهَا عَلَىٰ أهلها في الحياةِ الدنيا[٢] .

***

---

(١) البخاري (حديث ٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

(٢) أما في الآخرة فلا يهونها، قال تعالىٰ: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ أي: لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب.

تنوع صور البلاء

وقد تكونُ الابتلاءاتُ بالخيرِ كما أنها تكونُ بالشر:

* قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

* وقال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

* وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا ﴾ [الأعراف: ٩٥].

* وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

وهذا النوع منْ أنواعِ الابتلاءِ - ألا وَهوَ الابتلاءُ بالخيرِ - قلَّ مَن يَتَفطَّنُ له ويدركُهُ:

* فلا يكادُ الغنيُّ يدركُ أنَّ غناهُ فتنةٌ له!!!

* ولا يكادُ المُعافَى في بدنِه يُدركُ أنَّ صحتَهُ وعافيتَهُ فتنةٌ له.

* ولا يكاد مَن رُزِقَ الولدَ يُدرك أنَّ ولدَهُ فتنةٌ له!!!

* ولا يكاد مَنْ سكَنَ في مسكنه آمِنًا مُطمئنًّا يدرك أنه في نعمة وابتلاء واختبار بالأمن والأمان والمأوىٰ والمسكن!!

* ولا يتفطن مَنْ رُزِقَ محبةَ الخَلْقِ أنَّه في فتنةٍ وابتلاء هل يؤدِّي شُكْرَ ذلك أَوْ لا يؤدِّيه.

* ولا يشعر صاحبُ المنصبِ والجاه أن منصبَهُ فتنةٌ له وابتلاءٌ ولا يكاد يَشعر أنه كراعٍ مسئولٌ عن رعيته، وعن مَنْ هُمْ تحت يديه.

* ولا تشعر الجميلةُ الوضيئةُ الحسناء أنها دومًا في فتنةٍ وابتلاء، وهل تؤدي شُكر تلك النعمة أم أنها تَتَعَالَىٰ بها علىٰ الأُخْرَيَات.

* وهذا النابغُ المتفوقُ في دراسته دائمًا في تعالٍ وكبر وغرور - إلا من رحمه الله - ولا يذكر أن العقل والفهم نعمة من الله يمنحها من شاء فتنةً وابتلاء ويحرم من شاء منها!!

كل ذلك، لأنَّ النعمَ تُطْغي؛ لأنَّ النِّعَمَ تُنْسي.

* قال تعالىٰ: ﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦-٧] أي: إن الإنسانَ إذا رأىٰ نفسه مستغنيًا عن الناس بدأ في الطغيان عليهم.

* وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء: ٨٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورىٰ: ٢٧].

* وقال تعالىٰ في شأن أقوام: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

* **قال فريقٌ من العلماء:** طال عليهم الأمد في النعيم، فتنعَّمُوا نعيمًا طويلاً، وعاشوا زمانًا في العافية فقست قلوبهم فغفلوا عن ذكر الله

عز وجل، وعن دعائه وعن سؤاله ورجائه.

وقال آخرون: طال عليهم الأمد في البعد عن المواعظ والتذكير.

حقيقة؛ إن الابتلاء قد يكون بالسَّعَة في الرزق والعافية في البدن والأولاد والذرية ولكن هذه الحقيقة يعلمها الأنبياء وأهل الفضل والصلاح.

ومن ثمَّ قال سليمان (عليه السلام) لما رأىٰ عرش ملكة سبأ مستقرًا عنده قبل أن يرتَدَّ إليه طَرْفُه: ﴿**هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل: ٤٠].

وقد قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿**وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾ [الجن: ١٦].

فحتى لا تحزنَ أيها الفقيرُ وأيها السقيم: أيقن يا هذا أن الغنيَّ مُبتَلَىٰ بغناه وحتىٰ لا تحزن أيها المريض، فأيقنْ أن المُعافَىٰ في بدنه مُبتلًىٰ بالعافية فانظر إلىٰ حال هؤلاء الذين كانوا في ضُرٍّ وفقرٍ وبلاءٍ.

كيف كان حالهم؟! وإلىٰ ماذا آلَ أمرُهُم بعد أن وَسَّع الله عليهم وأسبغ عليهم النعم ومتَّعَهُم بالصحةِ بعد المرضِ، وبالغنىٰ بعد الفقرِ؟! انظر إليهم، وأيقنْ أنك لا تدري إلىٰ ماذا سيؤول أمرُكَ إذا أغناكَ الله وعافاك، فقليلٌ مِنَ العبادِ الشكور.

* أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [(١)] أنه سمع النبي ﷺ يقولُ: «**إنَّ ثَلاثَةً في بَنِي إسْرَائيلَ، أَبْرَصَ وأَقْرَعَ وأَعْمَى، فأَرَادَ الله أَنْ يَبْتَلِيَهم، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فأتى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟**

(١) البخاري (حديث ٣٤٦٤)، ومسلم (حديث ٢٩٦٤).

قَالَ : لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ. وَأُعْطِي لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ (أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ . شَكَّ إِسْحَاقُ) ـ إِلاَّ أَنَّ الأَبْرَصَ أَوِ الأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الإِبِلُ ، وَقَالَ الآخَرُ : الْبَقَرُ ـ قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ[١] ، فَقَالَ : بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.

قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ : شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ . قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا . قَالَ: فَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ : أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: الْغَنَمُ . فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا[٢] .

فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا[٣] . قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ . وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ . وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ.

قَالَ :ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ[٤] فِي سَفَرِي . فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللهِ ثُمَّ بِكَ. أَسْأَلُكَ ، بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ : الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ .

---

(١) (ناقة عشراء): هي الحامل القريبة الولادة .

(٢) (شاة والدًا) أي : وضعت ولدها، وهو معها .

(٣) (فأنتج هذان وولّد هذا) ومعناه: تولى الولادة، وهي النتج والإنتاج، ومعنى ولّد هذا، بتشديد اللام، معنى أنتج . والناتج للإبل، والمولد للغنم وغيرها، وهو كالقابلة للنساء .

(٤) (انقطعت بي الحبال): هي الأسباب، وقيل : الطرق .

فقال لَهُ: كأَنِّي أعرفُك. أَلَمْ تكنْ أبرَص يقْذرُكَ النّاسُ؟ فقيراً فأعْطَاكَ اللهُ؟ فَقَالَ: إنَّمـا وَرِثْتُ هذَا المَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ[١] . فَقَالَ: إنْ كُنْتَ كَاذِبًا ، فَصيَّرَكَ اللهُ إلى مَا كُنْتَ.

قالَ: وأَتَى الأَقْرَعَ في صُورته فقَالَ لَهُ مثْلَمَا قَالَ لهذَا. وَرَدَّ عليْه مِثلَما رَدَّ عَلَى هذَا . فَقَالَ: إنْ كُنْتَ كاذِبًا فَصيَّرَكَ اللهُ إلى ما كُنْتَ.

قالَ: وأتَى الأَعْمَى في صُورَته وهيْئَته فَقَالَ: رَجُلٌ مسْكينٌ وابنُ سَبيل. انقطَعَتْ بيَ الحبَالُ في سفَري فَلا بَلاغَ لِي اليَوْمَ إلا بالله ثمَّ بكَ . أَسْأَلُكَ ، بالَّذي رَدَّ عليْك بَصَرَكَ، شَاةً أتَبَلَّغُ بهَا في سفَرِي فقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعمَى فَرَدَّ اللهُ إليَّ بَصَرِي . فخذْ ما شئْتَ . وَدَعْ مَا شئْتَ فوَالله لا أَجْهَدُكَ اليوْمَ[٢] شَيْئًا أخَذْتَهُ لله. فَقَالَ: أَمْسكْ مَالَكَ . فَإنَّمَا ابْتُليتُمْ. فَقَدْ رُضيَ عَنْكَ وسُخطَ عَلَى صَاحبَيْكَ».

ولتعلم أيها الفقير المبتلى أن المتنعمين والأصحاء في الأبدان سيُسألون يومًا ما . ولابد . عن النعيم:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر: ٨] .

وأخرج مسلم[٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةَ . فإذَا هُوَ بأبي بَكرٍ وعُمَرَ ؛ فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بيوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالا : الجُوعُ . يَا رَسُولَ الله! قَالَ :

---

(١) (إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر) أي: ورثته من آبائي الذين ورثوه من آبائهم، كبيراً عن كبير، في العز والشرف والثروة.

(٢) معناه: لا أشق عليك ، بل خذ ما شئت وما تطلب كي تتبلغ به في سفرك.

(٣) مسلم (حديث ٢٠٣٨).

«وأنا ، والَّذي نفسي بيده ! لأخرجني الَّذي أخرجكما . قوموا» فقاموا معه . فأتى رجلاً من الأنصار . فإذا هو ليس في بيته . فلمَّا رأته المرأة قالت : مرحبًا ! وأهلاً ! فقال لها رسولُ الله ﷺ : «أين فلانٌ؟» قالت : ذهب يستعذب لنا من الماء . إذ جاء الأنصاريُّ فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه . ثمَّ قال : الحمدُ لله . ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافًا منِّي .

قال : فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسرٌ وتمرٌ ورطبٌ فقال : كُلُوا من هذه وأخذ المُديَة[1] ، فقال له رسولُ الله ﷺ : «إيَّاك ! والحلوب»[2] فذبح لهم . فأكلوا من الشَّاة ، ومن ذلك العذق ، وشربوا فلمَّا أن شبعوا ورووا ، قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ وعمر :

«والَّذي نفسي بيده ! لتُسألُنَّ عن هذا النَّعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثمَّ لم ترجعوا حتَّى أصابكم هذا النَّعيم» .

* * *

(١) المدية : هي السكين .

(٢) أي : التي تحلب اللبن .

وهؤلاء هم الأنبياء صلوات ربي وسلامهُ عليهم وصور من الابتلاءات التي ابتلوا بها:

ابتلاءٌ بحسد حاسدٍ[1] وإغواء مُغوٍ

فهذا أَبُونَا آدَمُ ﷺ:

* ابْتُلِيَ عليه السلام بحسدِ حاسدٍ شريرٍ مُفسدٍ أَلا وهو إبليس لعنه الله فما هو إلا أنْ أُمِر بالسجود مع الملائكة لآدم عليه السلام حتىٰ ظهر منه حَسَدُهُ فامتنع أشد الامتناع وأبىٰ أشد الإباء وجادلَ ومارىٰ.

قالَ تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

ثم إنه تعلَّلَ بعللٍ، واعترض باعتراضاتٍ، فقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

تعلَّلَ بعلة أخرىٰ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

ثُمَّ توعَّدَ قائلاً: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢].

فبدأ الغَوِيُّ في كَيْدِهِ لآدمَ عليه السلام، ولذرية آدم.

ومن أشد صور هذا الكيد صَرْفُهُم عَنْ طَاعةِ اللهِ عزَّ وجل.

---

(١) وهذا النوع من أنواع الابتلاء كما ابتلي به آدم عليه السلام فقد ابتلي به رسول الله ﷺ قال قومه: ﴿لولا نزل هذا القرآن علىٰ رجل من القريتين عظيم﴾، وابتلي به يوسف عليه السلام: ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلىٰ أبينا منا ونحن عصبة﴾، وابتلي به ابن آدم الأول لما قرب القربان فتقبله ربه فقال له أخوه ﴿لأقتلنك﴾.

ابتلي به أهل الإيمان عموماً، قال تعالىٰ: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾.

وهؤلاء هم الأنبياء صلوات ربي وسلامهُ عليهم وصور من الابتلاءات التي ابتلوا بها:

ابتلاءٌ بحسد حاسدٍ[1] وإغواء مُغوٍ

فهذا أَبُونَا آدَمُ ﷺ:

* ابْتُلِيَ عليه السلام بحسد حاسدٍ شريرٍ مُفسدٍ ألا وهو إبليس لعنه الله فما هو إلا أنْ أُمِر بالسجود مع الملائكة لآدم عليه السلام حتى ظهر منه حَسَدُهُ فامتنع أشد الامتناع وأبى أشد الإباء وجادلَ وماريٰ .

قالَ تعالىٰ : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٣٤] .

ثم إنه تعلَّلَ بعللٍ، واعترض باعتراضاتٍ، فقال : ﴿ **أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** ﴾ [الإسراء: ٦١] .

تعلَّل بعلة أخرىٰ : ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾ [ص: ٧٦] .

ثُمَّ تَوَعَّدَ قائلاً : ﴿ **أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٦٢] .

فبدأ الغَوِيُّ في كَيْدِهِ لآدمَ عليه السلام، ولذرية آدم .

ومن أشد صور هذا الكيد صَرْفُهُم عَنْ طَاعَةِ اللهِ عزَّ وجل .

---

(١) وهذا النوع من أنواع الابتلاء كما ابتلي به آدم عليه السلام فقد ابتلي به رسول الله ﷺ قال قومه : ﴿لولا نزل هذا القرآن علىٰ رجل من القريتين عظيم﴾ ، وابتلي به يوسف عليه السلام : ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلىٰ أبينا منا ونحن عصبة﴾ ، وابتلي به ابن آدم الأول لما قرب القربان فتقبله ربه فقال له أخوه ﴿لأقتلنك﴾ .

ابتلي به أهل الإيمان عموماً، قال تعالىٰ : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ .

وابتلي آدم بابتلاء آخر واختُبِر اختبارًا

لقد ابتلي بشجرة !!!

لقد أذنَ اللهُ لآدمَ عليه السلام بالأكل - هو وزوجته - من الجنةِ كيف شاء، إلا من شجرة واحدةٍ، والله يبتلي مَن شاء بما يشاء لعلمٍ يعلمه هو ولا نعلمه.

قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦].

لقد بذل إبليس ما استطاعه من جهدٍ لإغواء آدم عليه السلام.

فأكل آدم من الشجرة، فمن ثَمَّ أُخرج من الجنة.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥].

فابتُلِيَ آدم بهذا الابتلاء، ولكن قدَّر الله وما شاء فعل!!

ولكن ربُّنا رحيمٌ وغفُور.

قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

* * *

ابتلاءٌ في الولد[١]

فهذا ابتلاءٌ ثالثٌ يمرُّ به آدمُ (عليه السلام):

لقد ابتُلِيَ في ولدِهِ ، ولقد ابتلي بالخلاف بين أبنائه ، لقد رزقه اللهُ بولدٍ صالحٍ تقيٍّ وَرَعٍ يخشىٰ الله وَيراقِبُه ويحفظُ حدودَهُ ، وَثَمَّ ولدٌ آخر شريرٌ مفسدٌ عارمٌ ، فتطاولَ المفسدُ العارمُ الشرير علىٰ أخيه الصالحِ التقيِّ فقتله ، وإنه لابتلاء عظيم حقًّا ، فتخيلْ يا عبد الله عافانا الله وإياك ـ أن يأتي ولدٌ من أولادك يقتل أخاه!

يأتي الشرير المفسد يقتل التقي الورع!

إنه ابتلاءٌ شديدٌ حقًّا .

ابتلاءٌ في الولدين معًا . . .

لقد ابتُلِيَ آدمُ بفراقِ الولد الصالح التقي الورع ، وإن القلبَ ليحزن ، وإنَّ العينَ لتدمع وابتُلِيَ في الآخر أَيضًا ، فقد فسد عليه دينه وكيف يوافي ربَّه بقتل نفسٍ مسلمةٍ بغير حقٍّ ؟!

* * *

(١) وقد ابتلي نوح عليه السلام بمثل هذا ، فقد غرق ولده ومات علىٰ الكفر وهو يشهد ذلك ، وقد يبتلىٰ الشخص بموت ولد عزيز عليه كما ابتلي رسولنا ﷺ بموت إبراهيم ولده ، وقال : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » أخرجه البخاري (حديث ١٣٠٣).
وابتلي إبراهيم عليه السلام بالأمر بذبح ولده إسماعيل عليه السلام .
وابتلي يعقوب عليه السلام بحسد أبنائه لولدِه ـ العزيز عليه ـ يوسف ﷺ .
وابتلي أيضًا بأهل قرية يتحدثون أن ابن يعقوب قد سرق .

ابتلاءٌ بتكذيب القوم (١) للأفاضل الكرام وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام

فهذا نبيُّ الله نوح ـ عليه السلام ـ:

يُبتَلَى بتكذيبِ قومِهِ لَهُ ، لقد لَبِثَ فيهم أَلْفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا فما آمَنَ معه إلا قليل، بل: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:٣٨].

بل ويتهدَّدُوه ويتوعَّدُوه فـ: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]، فعندها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:١١٧-١١٨].

بَلْ وَرَمَوْهُ بالجُنُون: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾[القمر: ٩].

فَوَصَلَ به الأَمْرُ إلى أَنْ دَعَا رَبَّه قَائِلاً: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر:١٠].

وثم ابتلاءٌ آخر يُبتلى به نوحٌ ـ عليه السلام ـ:

لقد ابْتُلِيَ بولدٍ كافرٍ أصرَّ علىٰ كُفْرِهِ والأمواجُ تتلاطم.

وقد تفجرت الأرضُ عيُونا، وفُتِحَتْ أبوابُ السماء بماءٍ مُنْهَمِرٍ فالْتَقَى الماءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ، وأَبُوه يدعوه ويُلِحّ في الدعاءِ، ويرجوه: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود:٤٢].

---

(١) وهذا ابتلاء قد ابتلي به عموم المرسلين، بل ووصفوا بالسحر والجنون: قال تعالىٰ: ﴿وكذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون﴾.

فيأبىٰ الولد أشد الإباء ويمتنعُ أشد الامتناع ويقول: ﴿ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣].

هكذا يقول الغبي: ﴿ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾.

هكذا يغرق الولد ويموت كافرًا أمام عَيني والده فليس الابتلاء بفقدان الولد فحسب، بل بموته علىٰ الكفر عياذًا بالله من الكفر.

ثم إنه تأخذه الشفقة علىٰ ولده كأب مشفق حنون فيقول: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾[هود: ٤٥]، فيقول الله له معاتبًا: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

فيقول معتذرًا متعوذًا: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

ابتلاء بزوجة مُزعجة مفسدة(١)

وهذا ابتلاءٌ ثالثٌ فيُبتلَىٰ هذا النبي الكريمُ نوح عليه السلام بزوجته الخائنة، ولم تكن خيانتها في الفراش، فإن الله حفظ أنبياءه في فراشهم فلم تَزْنِ زوجةُ نَبيٍّ قطُّ.

ولكنها زَوْجَةٌ مُؤذيةٌ تَدُلُّ أهلَ الكفرِ علىٰ نوح ومَنْ آمن به، وتتسبَّبُ له في الأذىٰ، وتخونه في سائر أمور الحياة.

---

(١) وقد ابتلي بمثل ذلك أيضًا نبي الله لوط، وابتلي به أيضًا نبي الله إسماعيل ومن ثم أوصاه أبوه إبراهيم عليه السلام بأن يُغير عتبة بابه وقد تبتلى الزوجة الصالحة المؤمنة أيضًا بزوج شرير مفسد، كما ابتليت امرأة فرعون الصالحة التقية بزوجها الطاغية فرعون.
وقد قال الله سبحانه: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم فاحذروهم﴾.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

حقًا إنَّ الابتلاء شديدٌ على هذا النبي الكريم قومٌ يكذبونه، وولدٌ كافر، وامرأة خائنة، ولكن كفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيراً.

أما نبيُّ اللهِ وخليله إبراهيم عليه السلام فقد تنوَّعت عليه الابتلاءات وتعددت!!

* **ابتلاءٌ بالإلقاء في النَّار:** فثبَّته اللهُ وصبر وأُلْقِيَ في النار فجعلها الله عليه بَرْدًا وسلامًا.

* **ابتلاءٌ في البدن:** فقد أُمِرَ بالختان فاختتن بالقدوم (وهو آلة النجار المعروفة) وهو ابن ثمانين سنَة.

* **ابتلاءٌ في الولد:** فقد تأخَّرَ عنه الولد فلم يُرْزَق الولد إلا على الكبر، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

فرُزق على الكبر بإسماعيل عليه السلام ثم مرَّت الأيام والشهور والسنون فلما اشتد عود إسماعيل عليه السلام بعض الشيء واستطاع قضاء بعض ما يطلبه منه أبوه، ويحتاج إليه أبوه الشيخ الكبير لقضاء بعض الحوائج، فإذا به يؤْمر بذبحه!!

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

حقًا إنَّ الابتلاء شديدٌ على هذا النبي الكريم قومٌ يكذبونه، وولدٌ كافر، وامرأة خائنة، ولكن كفى بالله وليًا وكفى بالله نصيراً.

أما نبيُّ اللهِ وخليله إبراهيم عليه السلام فقد تنوَّعت عليه الابتلاءات وتعددت!!

* **ابتلاءٌ بالإلقاء في النَّار:** فثبَّته اللهُ وصبر وأُلْقِيَ في النار فجعلها الله عليه بَرْدًا وسلامًا.

* **ابتلاءٌ في البدن:** فقد أُمِرَ بالختان فاختتن بالقدوم (وهو آلة النجار المعروفة) وهو ابن ثمانين سنَة.

* **ابتلاءٌ في الولد:** فقد تأخَّر عنه الولد فلم يُرْزَق الولد إلا على الكبر، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

فرُزق على الكبر بإسماعيل عليه السلام ثم مرَّت الأيام والشهور والسنون فلما اشتد عود إسماعيل عليه السلام بعض الشيء واستطاع قضاء بعض ما يطلبه منه أبوه، ويحتاج إليه أبوه الشيخ الكبير لقضاء بعض الحوائج، فإذا به يُؤْمر بذبحه!!

* إنه ابتلاء بالسمع والطاعة ومعرفة مدى الامتثال:

يُؤمر النبي الكريم خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام بذبح ولده الراشدِ البَارِّ العاقلِ الكريم، فماذا كان؟

ماذا كان من إبراهيم عليه السلام ؟!!

وماذا كان من إسماعيل عليه السلام ؟!!

لقد امتثلا خير امتثال، وسمعا خير سمع وأطاعا خير طاعة: ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾[الصافات: ١٠٢].

وصَبَر إسماعيل عليه السلام على أمر الله وعلى قضاء الله وامتثل أبوه أمر ربه، وعمل بوحيه . .

﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا** ﴾ أي: استسلما لأمر ربهما وخالقهما.

﴿ **وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** ﴾ أضجعه على الأرض استعداداً للذبح فحينئذٍ فداه الله بذِبْحٍ عظيم، فالحمد لله رب العالمين.

لقد وُفِّقَ إبراهيمُ ووُفِّق إسماعيلُ عليهما السلام، وناداه ربه: ﴿ **يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** ﴾[الصافات: ١٠٤: ١٠٧].

فحقًّا إنه خليل الله وحقًّا إنها أسرة كريمة مباركة!

ثم ابتلاءٌ آخر يُعرض لهذا النبي الكريم

لقد ابتُليَ بجبَّار من الجبابرة، وبلقائه، ولقاءُ الظَّلَمَةِ شاقٌّ ومريرٌ، ومع ذلك ثبَّت الله إبراهيم عليه السلام فقال لهذا الجبار: ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾، فيجيبه الجبار بقوله: ﴿ **أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾ فيقول إبراهيم عليه

السلام محاججًا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨].

*** ابتُلي إبراهيم (عليه السلام) بالإخراج من البلاد فقال:** ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

*** وهذا ابتلاءٌ يُبتلى فيه الخليل ـ عليه السلام ـ، وإنه ابتلاء بكفر أبيه[1] وتهديد أبيه له:**

فما زال الخليل إبراهيم عليه السلام يُذَكِّر أباه قائلاً: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢-٤٥] فهكذا يكرر إبراهيم عليه السلام: «يا أبت» «يا أبت» «يا أبت» «يا أبت» ولكن ترىٰ بم يجيبه أبوه؟!! إن أباه يتهدد ويتوعد، ويأبىٰ ويعاند، فيقول: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ؟! ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]!

فحقًا إنه ابتلاءٌ صعبٌ وشاقٌّ، أن يبتلىٰ الشخص بوالده المعاند الكافر المحارب.

*** وهذا أيضًا من البلاء:**

لقد ابْتُلِيَ خليلُ الرحمن بعنادِ قومِهِ، وكفرِ قومِهِ، وعداءِ قومِهِ فأبَىٰ قومُهُ إلا كفورًا.

فها هو يقول لزوجته (سارّة) لما أتىٰ علىٰ جبار من الجبابرة: يا سارة،

---

(١) وقد ابتلي نبينا محمد ﷺ بكفر عمه أبي لهب، ونزلت في شأنه سورة من القرآن، وابتلي أيضًا بكفر عمه أبي طالب مع أنه الذي رعاه إذ كان طفلاً ونافح عنه إذ كان نبيًّا.

ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك[١]، ثم بعد ذلك يؤمن به من قد آمن - وهم قلةٌ قليلة - قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ثم آمنت به فئة وأظهروا براءتهم من الشرك وأهله غير مبالين بكفر الكافرين وعناد المعاندين.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة: ٤].

ابتلاء بمحاولات الاغتصاب[٢]

* **وهذا أيضًا من البلاء:** لقد ابْتُلِيَ خليلُ الرحمن لَمَّا نزل - بلاءُ الجبابرة - بملكٍ ظالمٍ جبار يريد أن يسلبه زوجته فعصمها الله وأنجاها.

وأخرج مسلم[٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لَم يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ عليه السلامُ قطُّ، إلا ثلاثَ كذبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ في ذات الله، قولُهُ: إِنِّي سَقِيمٌ وقولُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، ، وواحدةً في شأن سَارَةَ، فإنَّهُ قدمَ أَرْضَ جبَّارٍ ومعهُ سارةُ، وكانتْ أحسنَ الناسِ، فقالَ لها: إنَّ هذَا الجبَّارَ، إن يعلَم أنَّك امرأتي، يَغْلبْني عليك، فإنْ سألَك فأخْبِرِيه أنَّك أختي، فإنَّك أختِي في الإسْلاَمِ، فإنِّي لاَ أعلَمُ في الأرْضِ مُسْلِمًا غيْرِي وغيْرَك، فلَمَّا**

(١) انظر البخاري (حديث ٣٣٥٨) ومسلم (٢٣٧١).

(٢) ويدخل فيه اغتصاب الأموال بغير حق كما هو فعل الجبابرة والظلمة. قال الخضر لموسى عليهما السلام: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾.

(٣) مسلم (٢٣٧١) وهو في البخاري أيضًا.

دَخَلَ أَرْضه رَآهَا بَعْض أَهْلِ الجَبَّار أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امرأةٌ لا ينبغي لهَا أن تكُونَ إلا لَكَ، فَأرسَلَ إِليهَا فأُتِي بهَا، فقام إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى الصَّلاة، فلَمَّا دخلَتْ عليه لم يتَمالَكْ أَنْ بَسَطَ يدَهُ إِلَيْهَا، فقبضَتْ يدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً. فقال لَهَا: ادعي الله أن يُطْلِقَ يَدِي ولا أضُرُّك. ففعلَتْ فعادَ. فقبضَتْ أشدَّ مِنَ القَبْضَةِ الأولَى. فقال لَهَا مِثْلَ ذلك. فَفَعَلَتْ فعَادَ. فقبضَتْ أشدَّ من القَبْضَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ. فقالَ: ادْعِي اللهَ أن يُطْلِقَ يدي فلَكِ الله(١) أن لا أضرك، فَفعلَتْ وأُطلقَتْ يدُهُ ودَعَا الذي جَاء بهَا فقالَ لَهُ: إنَّكَ إنَّمَا أتَيْتَنِي بشيطَانٍ، ولَمْ تَأْتنِي بإنْسَانٍ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي وأَعْطِهَا هَاجَرَ.

قَالَ: فأقْبَلَتْ تَمْشِي فَلَمَّا رَآهَا إبْرَاهِيمُ عليه السَّلامُ انْصَرَفَ. فقال لهَا: مَهْيَمْ(٢)؟ قالَتْ: خَيْرًا كَفَّ اللهُ يَدَ الفَاجِرِ وَأَخْدَمَ خَادِمًا(٣)».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «فَتِلْكَ أمكُم يا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ(٤)».

* * *

---

(١) (فلك الله): أي: شاهد وضامن أن لا أضرك قال الطيبي: الرواية فيه بالنصب لا يجوز غيره، وهو قسمٌ.

(٢) (مهيم): أي: ما شأنك وما خبرك.

(٣) (وأخدم خادمًا): أي: وهبني خادمًا وهي هاجر. ويقال: آجر. والخادم يقع على الذكر والأنثى.

(٤) (يا بني ماء السماء): قال كثيرون: المراد ببني ماء السماء، العرب كلهم، لخلوص نسبهم وصفائه. وقيل: لأن أكثرهم أصحاب مواشي، وعيشهم من المرعى والخصب وما ينبت بماء السماء. وقال القاضي: الأظهر عندي أن المراد بذلك الأنصار خاصة ونسبتهم إلى جدهم عامر ابن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. وكان يعرف بماء السماء وهو المشهور بذلك و الأنصار كلهم من ولد حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر المذكور.

ابتلاء بالتكاليف الشرعية

* ثم إن إبراهيم (عليه السلام) ابتُلِيَ عُمومًا بأوامر ونَواه فقام بأمْرِ الله خَيْرَ قيام، وانتهى عما نهاه الله خير انتهاء.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

أمَّا الكلمات التي ابْتُلي بها إبراهيم عليه السلام فهي عموم الشرائع والأوامر والنواهي والتكاليف التي كلف الله عز وجل بها إبراهيم عليه السلام فيدخل في ذلك ما ذكره العلماء مما يلي:

* فراق إبراهيم عليه السلام قومه في الله حين أُمر بفراقهم.

* ومحاجته للنمرود كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] (١).

* صبره على قذفه في النار.

* ما أمره الله به من إكرام الضيف وصبره على ذلك.

* وما ابتلي به من أمره بذبح ولده عليهما السلام وصبره على ذلك، وامتثاله ما أمره الله به ويدخل في ذلك أيضًا ما ذكره العلماء وفيه:

* إن الله عز وجل ابتلاه بالطهارة، خمس في الرأس وخمس في الجسد.

---

(١) فتكلَّم إبراهيم عليه السلام بكلمة الحق عند سلطان جائر.

في الرأس: قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس.

وفي الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

* ويدخل فيها أيضًا الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار والإفاضة.

* ويدخل فيها أيضًا: ما ذكره بعض أهل العلم حيث قال: الإسلام ثلاثون سهمًا منها عشر آيات[1] في براءة ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١١٢]، وعشر آيات[2] في أول سورة قد أفلح المؤمنون، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وعشر آيات[3] في الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فأتمهن كلهن فكتب له براءة قال الله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، إلى غير ذلك من التكاليف التي كُلِّفَ بها إبراهيم عليه السلام.

---

(١) يقصد عشر صفات وهي: ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين...﴾ [التوبة: ١١٢].

(٢) يعني عشر صفات أيضًا وهي: ﴿قد أفلح المؤمنون* الذين هم في صلاتهم خاشعون* والذين هم عن اللغو معرضون* والذين هم للزكاة فاعلون* والذين هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون* والذين هم على صلواتهم يحافظون*﴾ [المؤمنون ١-٩].

(٣) يعني قوله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والخاشعين والخاشعات والصابرين والصابرات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وهذا العموم هو الذي اختاره ابن جرير وابن كثير رحمهما الله عزوجل.

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله تعالى:

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يُقال : إن الله عز وجل أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه وأمره أن يعمل بهن فأتمهن كما أخبر الله جل ثناؤه عنه أنه فعل، وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل (الكلمات) وجائز أن تكون بعضه؛ لأن إبراهيم صلوات الله عليه قد كان امتُحن فيما بلغنا بكل ذلك فعمل به وقام فيه بطاعة الله وأمره الواجب عليه فيه، وإذ كان ذلك كذلك فغير جائز لأحد أن يقول عنى الله بالكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم شيئًا من ذلك بعينه دون شيء ولا عنى به كل ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبرٍ عن الرسول ﷺ أو إجماع من الحجة ولم يصح في شيء من ذلك خبر عن الرسول ﷺ بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته.

فصلواتُ ربي على هذا الخليل وتسليماتِه.

* * *

وها هو نبيُّ الله يعقوب ـ عليه السلام ـ

يُبتلى في ولده يوسف

فُيفرَّقُ بينه وبينَ ولَدِهِ الحبيبِ إلىٰ قلبه، ولا يَدْرِي أين ذهبَ ولَدُه أَحَيٌّ هو أم أنه قد مات؟! يأتيه أبناؤه ـ بعد أن صنعوا ما صنعوا ـ قائلين: ﴿ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [يوسف: ١٧].

فيبكي يعقوب ويستمر به البكاء حتىٰ تبيض عيناه من الحزن، فهو: ﴿ كَظِيمٌ ﴾ أي: ممتلئٌ بالهموم والأحزان.

ابني يوسف أكله الذئب؟!! أأكل الذئب ولدي الحبيب إلىٰ قلبي، وفلذة كبدي؟!! وهل الأبناء صادقون أم أنهم كذبة؟!! فعلامات الكذب ظاهرة علىٰ الوجوه! ولكن أين ذهب ولدي؟! لا يدري يعقوب.

* ويستمر البلاءُ سنواتٍ طوال!

سنواتٌ مكثها يوسُف في بيت العزيز، وسنواتٌ لبثها يوسُف في السجن، وسَبْعُ سنواتٍ، هي سنوات الرَّخَاء، إلىٰ أن جاءت سنواتُ الشدة، وفرَّج الله الهَمَّ، وأذهَبَ اللهُ الكَرْبَ، وأَتَىٰ الله بالفرجِ فالحمد لله رب العالمين.

* وابتلاء آخر يعتري هذا النبي الكريم أثناء ابتلائه في ولده يوسُف الصديق، إنه ابتلاء بأخبار سيئة تبلغه، فيرسل يعقوب عليه السلام أولادَهُ لالتماسِ الزاد وطلبِ الطعام فيأتيه الخبر المزعج، يأتيه أبناؤه قائلين: ﴿ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ [يوسف: ٨١].

مفاجأة تلو المفاجأة، ابني سرق؟!

ابني الذي ربيته ونشَّأته علىٰ طاعة الله والمرسلين سرق؟!

ثم القرية علمت بذلك! والقوافل علمت بذلك!!

علمت القرية والقوافل أن ابن يعقوب سرق وأنه أُخذ بجريرته كعبدٍ مُستَرَقٍّ، وهو حُرٌّ بريءٌ فالله المستعان، والله وحده المستعان!!

* أما يُوسُف عليه السلام فهذا ابتلاؤه، بل شيءٌ من ابتلائِه:

يُبتلىٰ يوسف عليه السلام بحسد الحاسدين وكيد الكائدين ومكر الماكرين، ومَنْ هؤلاء الحُساد الذين يحسدونه بلا ذنب اقترف، ولا جُرم ارتكب؟ إنهم إخوته، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إخوته يحسدونه، فبماذا يرد؟ وبماذا يجيب؟ وهو طفل صغير ثم كما قال القائل:

قومي هُمُ قَتَلوا أُميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي

يؤول أمر حسدهم إلىٰ إلقائه في غيابة الجب وبيعه بثمن بخس دراهم معدودة، فيباع بيع الرقيق في الأسواق وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله!!

* يمكث عليه السلام في قصور الملوك والوزراء فيبلغ أشده ويؤتيه الله العلم والحكمة، ثم يبتلىٰ بأشد فتنة وأضر فتنة علىٰ الرجال، وهي: فتنة النساء، تلك الفتنة التي تعصف بالعقول وتذهب بالألباب، فتراوده امرأة العزيز عن نفسها، وتلاحقه وتطارده وتهدده وتتوعده ثم تلصق التهمة به وهو البار الراشد الكريم.

ثم يدخل السجن وهو البريء العفيف. يسجن مع الأشرار والعربيدين والمفسدين.

ولكن لا يضيعه الله في سجنه، بل هو محسن محبوب إلى السجناء!

يمكث في السجن بضع سنين ولا يغفل عن الدعوة إلى الله مع ما هو فيه من ابتلاء!

ثم يُقدر الله المقادير ويخرج عليه السلام من السجن بسبب علمه، لا بسبب جماله، يخرج بريئًا تقيًّا وقد ارتفع درجات فتأتيه فتنة السراء، فتنة المُلك وهي فتنة عظمى أيضًا لا يصبر عليها ولا يُعطي حقها ولا يقدم شكرها إلا الصابرون الشاكرون، فيقضيها محسنًا عاملاً بطاعة الله، مشهودًا له بالإحسان: ﴿**إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: ٣٦]

فتنة النساء

تلك الفتنة العظيمة التي تعصف بالرجال إنها تكاد أن تعصف بلب الرجل الحليم العاقل.

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ**﴾ [آل عمران: ١٤] فذكرت النساء من أول الشهوات.

وقد حذَّر النبي ﷺ أشد التحذير من الخلوة بالنساء فقال: «**ولا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان**»[(١)].

وفتنة النساء من أسبابها قلة دينهن كما قال النبي ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودينٍ أذهب للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦)، بإسناد صحيح لشواهده من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣٠٤)، ومسلم (بسنده مشيراً إلى متنه ص ٨٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً.

وتأتي أيضًا فتنة النساء من كثرة تشوف الأنفس إليهن وما جبل عليه الرجال من ميل إليهن، وما يصدر منهن من خضوع بالقول، وتغنج في المسير، وتبرج في الأزياء، وضرب بالأرجل ليُعلم ما خفي من الزينة، فتتصور المرأة التي هي سوداء كالفحمة في عين الرجل كأنها حسناء كالقمر، ألا ترىٰ الشاعر الماجن الذي ذهبت بِلُبِّه امرأة سوداء فقال:

أحببت لحبها السودان حتى أحببت لحبها سود الكلاب

فانظر إلىٰ هذا الماجن الذي أحب هذه السوداء وبالغ في ذلك الحب حتىٰ أحب كلَّ أسود حتىٰ بلغ به ذلك إلىٰ أن أحب سود الكلاب، وهي شياطين!!

* وأيضًا المرأة تحمل زوجها علىٰ اكتساب المال من الحرام إمضاءً لرغباتها وإشباعًا لشهواتها.

* وتحمله علىٰ التخلف عن الجمع والجماعات لشدة حسنها أو لفرط محبته لها.

* وتحمله علىٰ التخلف عن الجهاد فيقول له الشيطان: تجاهد فتقتل فتنكح المرأة... فيُصدُّ بسبب ذلك عن الجهاد وعن الخير.

* وتحمله علىٰ قطع الأرحام وعقوق الآباء والأمهات.

* يعاهد الناس عهودًا فتخفره في عهوده.

* تتزوج رجلاً وتحب آخر فيفسد الود ويتكدر جو المعيشة الأُسرية.

* تُخطب فتستشرف لرجل آخر فيخطب علىٰ خطبة أخيه فتدب البغضاء وتنشأ الشحناء وتدخل إلىٰ قلوب العباد.

* تحتال بشتىٰ الحيل للوصول إلىٰ مآربها ولا تبالي.

وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨].

وها هو يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام يقول مستعينًا بالله لاجئًا إليه راغبًا في فَرَجه وفضله: ﴿...وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، هذا ولا زال في النساء بقية من الصالحات اللواتي أثنى الله عليهن بقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، ولكنهن قليل، قد كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا القليل [(١)]، وقد اطلع النبي ﷺ على النار فرأى أكثر أهلها النساء [(٢)].

فيا معشر النساء تصدقن، وقمن إلى الصلاة من جوف الليل، فيارُبَّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة.

فتلك فتنةٌ هي أضر الفتن على الرجال.

* إذ النبي ﷺ قد قال: «**ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء**» [(٣)].

* وعن أبي سعيد الخُدْري عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**» [(٤)].

* وفي رواية [(٥)] لهذا الحديث عند الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي

---

(١) قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون» أخرجه البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١)، من حديث عائشة مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩)، ومسلم (٢٧٣٧)، من حديث ابن عباس مرفوعًا وله طرق.

(٣) البخاري (حديث ٥٠٩٦)، ومسلم (حديث ٢٧٤٠)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

(٥) أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦).

سعيد الخُدْري أن رسول الله ﷺ ذكر الدنيا فقال: «**إن الدنيا خضرة حلوة فاتقوها واتقوا النساء**» ثم ذكر نسوة ثلاثًا من بني إسرائيل؛ امرأتين طويلتين تعرفان، وامرأة قصيرة لا تعرف فاتخذت رِجلين من خشب وصاغت خاتمًا فَحَشَتهُ من أطيب الطيبِ، المسك، وجعلت له غلقًا، فإذا مرت بالملأ أو بالمجلس قالت به فنفخته ففاحَ ريحهُ.

لقد ابتلي بها الصديق يوسف ﷺ لكن قد استجاب له ربه فصرف عنه هذا الكيد وذاك البلاء قال الصديق يوسف عليه السلام: ﴿ **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [يوسف: ٣٣-٣٤].

لقد أنجى الله يوسف الصديق وحفظه!!

ولكن كم من شخصٍ ابتُلي بهن فدمرنه وأوبقن عليه دنياه وأخراه!!

كم امتُحن شخص بهذا الامتحان ففشل !!

وكم اختُبر من إنسان ففتن، فالمعصوم من عصمه الله.

* * *

وهذا شيءٌ من ابتلاء نبي الله وكليمه موسى عليه السلام

أما نبيُّ الله وكليمُهُ موسىٰ عليه السلام فقد تعددتْ عليه الابتلاءاتُ وتنوعتْ فمنذ أن حملتْ به أمُّه ، وهي في كربٍ شديد خوفًا عليه وإشفاقًا من شِفار الذَّبَّاحين الجبابرة الذين يذَبِّحُون الأبناء في المهد ويستَحْيُونَ النساء .

ثم وضعته أمُّه فإذا بها تُبْتَلَىٰ بإلقائه في التابوت ، وإلقاء هذا التابوت في اليمِّ فتسمعُ وتطيعُ وتمتثلُ الأمر .

ثم يُذهَبُ به إلىٰ بيتِ فرعونَ أَعْظَم مفسدٍ في الأرض ، ولكن يَكْتُبُ اللهُ لَهُ النجاةَ ويردُّه إلىٰ أمِّه كَي تَقَرَّ عينُهَا ولا تحزن . ثم تمرُّ به الأيامُ والسنون فيبتلىٰ بابتلاء آخر فَيَقْتُلُ نفسًا لم يُؤْمَر بقتلها فيخرج من المدينة خائفًا يترقب ! !

* ثم يأتي مَدْيَن ليس له بها أنيسٌ ولا جليسٌ فيأوِي إلىٰ الظِّلِّ قائلاً سائلاً : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] .

* ثُمَّ إنَّه يَرضَىٰ بمؤاجرة نفسِهِ ثمان سنين من أجل عِفةِ فرجِهِ : ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

* ويرجعُ بَعْدَ ذلكَ إلىٰ بلده ، وفي طريق الرجوعِ يُكْرِمُهُ الله تبارك وتعالىٰ بالذي أكرمه به من الرسالة والتكليم .

* فيأتي مِصرَ وُيكَلَّفُ وَيُؤمَرُ بلقاءِ فِرعَوْنَ ، وَمَنْ معه مِنَ الجبابرة العُتَاةِ الظلمةِ ، وهذا ابتلاءٌ مُخيف ، ولكن لا مفرَّ ولا مناص من الامتثال لأمر الله عز وجل ، فَيَسْمَعُ ويطيعُ ويمتثلُ ويكون مِنْ أمره مع فِرْعَوْنَ ما يكون ، ثم

إنَّ العاقبة للتقوىٰ فيهلِك الله فرعون وجنده! ، وتأتي ابتلاءات موسىٰ مع قومه، مع بني إسرائيل.

* فما هو إلا أن جاوز بهم البحر فإذا بهم يأتون علىٰ أقوامٍ يعكفون علىٰ أصنامٍ لهم، فيسأله قومه: ﴿ **يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

أهكذا يكون الأدب مع الأنبياء؟!!!

أهكذا يُقال للنبي الكريم الكليم الذي أنجاهم الله علىٰ يديه؟!!

أهكذا يطلب القوم الشرك بالله بعد أن أنجاهم الله؟!!

فيعلمهم نبيهم ويصبر علىٰ جهالتهم، ويصحِّح لهم معتقدهم.

فَيَبْقَىٰ فيهم موسىٰ عليه السلام ما شاء الله أن يبقىٰ، فيبتلىٰ بأقوام مفسدين بغاة، ومشركين طغاة.

* يُبتلىٰ بقارون الطاغي الباغي الذي أطغاه غِنَاه وأنساه!!.

* يُبتلىٰ بالسامريِّ الكذَّاب الأفَّاك الذي ابتكر عِجْلاً وافتراه وزعم أنه الإله!!

* يُبتلىٰ بقومٍ متخاذلين يقول لهم: ﴿ **ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾ [المائدة: ٢١] ويحاول معهم ويحاول لكن ما الجواب المرجوّ والمتوقَّع منْ هؤلاء؟!! إنهم قالوا: ﴿ **يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ [المائدة: ٢٤]!!.

* يبتلىٰ هذا الكليم الكريم بعد أن أجرىٰ الله علىٰ يديه من المعجزات ما أجرىٰ بقوم يقولون له: ﴿ **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ [البقرة: ٥٥].

* وانظر إلىٰ هذا الكليم في رحلته مع الخَضرِ طلبًا للعلم والتعليم، وإذا به يمر علىٰ قرية مع الخضر فيستطعما أهلها فيأبون أن يضيِّفُوهما!

سبحان الله نبيٌّ كريم كليم، اصطفاه الله بالرسالة والتكليم يَمُرُّ مَعَ رجلٍ آتاه الله من لَدُنْهُ علمًا، يمرَّانِ علىٰ قومٍ يطلبانِ طعامًا يقتَاتَان به فلا يُجابان!!

* يُبتلىٰ الكليم الكريم بقومه الذين يطعنون فيه ويؤذونه حتىٰ إنهم يتهمونه بأنه آدر (أي عظيم الخِصْيتين جدًّا) وليس ذلك لشيءٍ، إلا لكونه كان حَيِيًّا لا يرضىٰ أن يغتسل عريانًا.

أخرج البخاري ومسلم [(١)] من حديث أبي هُرَيرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ: فذكرَ أحَاديث منهَا: وَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَانتْ بَنو إسْرَائيلَ يغتَسلونَ عُرَاةً ينظرُ بعضهُمْ إلى سَوأةِ بعض، وكانَ مُوسَى عليه السلامُ يغتسلُ وَحدهُ فقالُوا: والله! ما يمنع مُوسى أن يغتَسلَ معَنَا إلاَّ أنَّهُ آدَرُ**[(٢)] **قال: فَذهَبَ مرَّةً يغتَسلُ. فوضعَ ثَوبهُ على حجر، ففرَّ الحجَرُ بثوْبه، قال: فَجَمحَ**[(٣)] **موسى بأثَرِه يقولُ: ثَوبي حَجرُ**[(٤)] **ثَوبي حَجَرُ! حتى نَظَرت بَنو إسرائيل إلى سوأة موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأسٍ. فقامَ الحَجرُ بَعْدُ، حَتَّى نُظِرَ إليه. قالَ: فأخذَ ثَوبَهُ فَطَفِقَ بالحَجَرِ ضربًا**».

قال أبو هريرة: والله! إنَّه بالحجَرِ نَدَبٌ [(٥)] سِتَّةٌ أو سَبْعَةٌ. ضَرْبُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِالْحجَرِ.

* * *

---

(١) البخاري (حديث ٣٤٠٤)، ومسلم (حديث ٣٣٩).

(٢) (آدر) عظيم الخصيتين.

(٣) (فجمح): أي ذهب مسرعًا إسراعًا بليغًا.

(٤) (ثوبي حجر) أي: دع ثوبي يا حجر.

(٥) المراد أثر الضرب، والله أعلم.

وهذا ابتلاءٌ بالضرِّ في الأبدان

ألا وهو ابتلاءُ نبي الله أيوب -عليه السلام-

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

* لقد لَبِثَ البلاءُ بهذا النبيِّ الكريمِ ثمانيةَ عشرَ عامًا!!

* لقد لَبِثَ به البلاء حتى رَفَضَهُ القريبُ والبعيد اللهم إلا زَوْجَتَهُ واثْنَيْنِ من أبناءِ عمومَتِه.

* أخرج ابن حبان بسندٍ صحيح [(١)] عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أيوب نبي الله لبث في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله، لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به. فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، وأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكتْ امرأتُه بيده، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ والله على ذلك ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا.

---

(١) ابن حبان (موارد الظمآن ٢٠٩١).

قال: إني أنا هو. وكان له أبدران : أبدر القمح وأبدر الشعير، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أبدر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاضت، وأفرغت الأخرى على أبدر الشعير الوَرِق حتى فاضت».

وهذه ماشطة بنت فرعون وما حلّ بها

أخرج الإمام أحمد بسندٍ حسنٍ: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كانت الليلة التي أسري بي فيها، أتت عليَّ رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة، فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، قال: قلت: وما شأنها؟ قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم، إذْ سقطت المدرى من يديها، فقالت: بسم الله . فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت : لا، ولكن ربي ورب أبيك الله ، قالت : أُخبره بذلك؟ قالت: نَعم فأخبرته، فدعاها فقال : يا فلانة، وإن لك ربًّا غيري؟ قالت: نَعم ربي وربك الله. فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها. قالت له: إن لي إليك حاجة، قال : وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا. قال: ذلك لك علينا من الحق، قال : فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحدًا واحدًا إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع، وكأنها تقاعست من أجله. قال: يا أُمَّه، اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت»[1] .

---

(١) أحمد في «المسند» (١/ ٣٠٩).

شاهد عند ابن ماجه (٤٠٣٠) من طريق : سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن مجاهد وله عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ - ببعض معناه هذا ، وقد ذكر عدد من أهل العلم أن حماد بن سلمة قد سمع من عطاء بن السائب قبل الاختلاط (انظر : «الكواكب النيرات في معرفة المختلطين من الرواة الثقات» لابن الكيال).

وهذا ابتلاءٌ بالسرَّاء

وهو ما ابتُلِيَ به نبيُّ الله سليمان. عليه السلام.:

لقد منَّ الله على هذا النبيِّ الكريم بنعمٍ في الدنيا لم يُنعمْ على أحدٍ في الدنيا بمثلها لقد سُخِّرَتْ له الريحُ تجري بأمْرِهِ رُخَاءً حيثُ أصاب!!

*لقد سُخِّرتْ له الجنُّ والشياطينُ كُلُّ بنَّاءٍ وغوَّاص وآخرون مُقَرَّنون في الأَصْفَاد!!

*لقد أَفهمه اللهُ لُغَةَ الطَّيْرِ وسائِرِ الدَّوابِّ!!!

*لقد أَسَالَ اللهُ لَهُ عَيْنَ القطر!!!

*لقد أَفْهمَهُ اللهُّ القَضَاءَ وَفَضَّ المُنَازَعات!!!

*لقد قال لقومه: ﴿ **يا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمْنا مَنطِقَ الطَّيْرِ وأُوتينا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** ﴾ [النمل:١٦].

ومَعَ هذا الذي ذكرنا فالحياةُ لا تَسْلم من تعبٍ ونَصَبٍ ونكدٍ وبلاء لقد رُزِقَ بنصْفِ إنسَان!!!

إنه ولدٌ مُعاقٌ مُبْتَلَى: ولم يُدْرَ أعاشَ هذا الولد أم أنه قد مات، لكنه على كل حالٍ وُلد على هذا النحو فقد يُبْتَلَى الشخص في ولدِهِ بمرضٍ أو بعاهةٍ، عافانا الله والمؤمنين!!

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ** ﴾ [ص:٣٤].

لقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذا الجسد هو نصف الإنسان الذي وضعته إحدى النسوة اللاتي وطأهن سليمان عليه السلام.

* وذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم[١] من حديث أبي هريرة قال: كَانَ لسُليمانَ ستُّونَ امرأةً. فقالَ: لأَطُوفَنَّ عليهنَّ الليلَةَ. فَتَحْمِلُ كلُّ واحدةٍ منهنَّ. فتلدُ كلُّ واحدةٍ منْهُنَّ غُلامًا فارسًا. يُقاتلُ في سبيلِ الله. فلم تحملْ منهنَّ إلا واحدة. فولدَتْ نصفَ إنسانٍ. فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ كَانَ اسْتَثْنَى، لَوَلَدَتْ كُلُّ واحدةٍ منهُنَّ غلامًا، فارسًا، يُقاتلُ في سبيلِ الله**».

وقد ورد بسياق آخر عند مسلم مرفوعًا كله عن أبي هريرة، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «**قالَ سُليمانُ بن داود: لأطُوفنَّ الليلَةَ على تسعينَ امرأةً، كُلُّهَا تأتي بفارس يُقَاتلُ في سبيل الله. فقالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إنْ شَاءَ الله، فَلَمْ يَقُلْ: إنْ شاءَ اللهُ. فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا. فلَمْ تَحْمِلْ منهُنَّ إلا امرَأَةٌ واحدَةٌ، فَجَاءَتْ بشِقِّ رَجُلٍ. وايْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه! لَوْ قَالَ: إن شَاءَ اللهُ، لَجَاهَدُوا في سَبِيلِ الله فُرْسَانًا أجْمَعُونَ**».

* **ولكن قد ذهب آخرون إلى أن هذا الذي أُلقي على الكرسي** إنما هو شيطان، ولذلك بحث آخر في مكان آخر مستوفى إن شاء الله.

* **لقد ابتلي هذا النبي الكريم بطعن قومه فيه، بل وبتكفيرهم له ووصفهم له بالسحر.**

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾[البقرة: ١٠٢].

وتدور أكثر أقوال المفسرين على أن الذي تلته الشياطين على ملك سليمان هو بعض أنواع من السحر والشعوذة ابتدعتها الشياطين ونسبوها إلى سليمان عليه السلام، وزعموا أنه كان يُسَخَّر بها الجن، على تفصيلات

---

(١) البخاري(٣٤٢٤)، ومسلم حديث(١٦٥٤).

للمفسرين في ذلك ووجهات لهم، أما بالنسبة لبعض الآثار في ذلك فنورد بعض ما صح منها إلىٰ قائليها:

❊ أثر ابن عباس رضي الله عنهما:

أخرجه الطبري [(١)] من طريق أبي السائب السوائي قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الذي أصاب سليمان بن داود في سبب أناس من أهل امرأة يُقال لها جَرادَة، وكانت من أكرم نسائه عليه، قال: فكان هوىٰ سليمان أن يكون الحق لأهل الجرادة فيقضي لهم فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحداً، قال: وكان سليمان بن داود إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيئًا من نسائه أعطىٰ الجرادة خاتمه فلما أراد الله أن يبتلي سليمان بالذي ابتلاه به أعطىٰ الجرادة ذات يومٍ خاتمه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فأخذه فلبسه، فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس، قال: فجاءها سليمان فقال: هاتي خاتمي! فقالت: كذبت لست بسليمان! قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلي به قال: فانطلقت الشياطين فكتب في تلك الأيام كتبًا فيها سحر وكفر ثم دفنوها تحت كرسي سليمان ثم أخرجوها فقرءوها على الناس وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب! قال فبرئ الناس من سليمان وأكفروه حتىٰ بعث الله محمداً ﷺ فأنزل جل ثناؤه: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢] يعني: الذي كتب الشياطين من السحر والكفر: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:١٠٢]، فأنزل الله عز وجل عذره وهذا إسناد حسن إلىٰ ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) هو عند الطبري (١٦٦٠) وأبو السائب السوائي هو سلم بن جنادة.

* ومن طريق (١) أبي أسامة عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أيضًا قال: كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا من كل سطرين سحراً وكفراً وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل به، قال: فأكفره جُهَّال الناس وسبُّوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبوه حتى أنزل الله على محمد: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا** .. ﴾ [البقرة: ١٠٢].

* أثر قتادة رحمه الله:

أخرج الطبري بإسناد حسن (٢) عن قتادة قوله: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ** ﴾ [البقرة: ١٠٢] من الكهانة والسحر، وذكر لنا والله أعلم أن الشياطين ابتدعت كتابًا فيه سحرٌ وأمرٌ عظيم ثم أفشوه في الناس وعلموهم إياه.

* أثر أبي مجلز رحمه الله:

أخرج الطبري بإسناد صحيح (٣) إلى أبي مجلز رحمه الله قال: أخذ سليمان من كل دابة عهدًا فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد خُلِّي عنه فرأى الناس السَّجع والسحر، وقالوا: هذا كان يعمل به سليمان، فقال الله جل ثناؤه: ﴿ **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩٨٨).

(٢) الطبري (١٦٥٢).

(٣) الطبري (أثر ١٦٦١)، بإسنادٍ صحيح عنه.

وهذه الآثار كما رأيت ثابتة إلىٰ قائليها، لكن الله أعلم من أين أخذها قائلوها والظاهر أنهم تلقوها من الروايات الإسرائيلية المنقولة عن أهل الكتاب، والله أعلم.

* وزكريا عليه السلام يُنشر بالمنشار، وهو النبي الكريم وولده يحيى النبي الصالح السيد الحصور يُذبح عليه السلام على ما ذكره جمهور المفسرين.

وعيسى عليه السلام، نبيٌّ كريم ورسول من رب العالمين

روح الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم يُتهم عليه السلام، وقد جاء قومه بالبينات، يتهم بأنه ساحر وأن ما جاء به سحرٌ مبين.

بل ويطعن فيه اليهود، ويتهمونه بأقبح الاتهامات وأقذر الاتهامات، قاتل الله اليهود.

إنهم يطعنون في مريم عليها السلام ويفترون عليها البهتان العظيم.

قال تعالىٰ: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٦].

والرسل كلهم يبتلون بتكذيب أقوامهم لهم، وبوصفهم لهم بالسحر والكهانة وبتهديدهم بالإخراج من البلاد، بل وبالقتل والتشريد.

قال تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وهذا ابتلاء بالطرد والإخراج من البلاد والديار

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾[الحج: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** ﴾[إبراهيم: ١٣].

فهكذا يُخرج الأنبياء والمرسلون بل والصالحون من الديار!!

لا لذنب فعلوه، ولا جرم ارتكبوه، لكنهم آمنوا بالله العزيز الحميد.

قال تعالى: ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾[البروج: ٨] وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: «لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عُودي»(١).

وقال له أيضًا: «ليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك» وهؤلاء قوم شعيب يقولون له: ﴿ **لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** ﴾[الأعراف: ٨٨].

ويا عجبًا لقوم لوط، ولفجورهم وبذاءتهم ووقاحتهم إذ يقولون: ﴿ **أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾[النمل: ٥٦].

ولا ينقضي العجب إذ يُخرج الرسول ﷺ محمد بن عبد الله سيد ولد آدم الذي يُقال له الصادق الأمين ويطرد من بلده، وهو أول شافع وأول مشفع وأول من تفتح له أبواب الجنة.

فها هو يُخرج من بلده، يؤذىٰ ويُضيق عليه فعن عبد الله بن عدي بن

---

(١) البخاري (حديث رقم ٣) ومسلم (حديث ١٦٠).

الحمراء الزهري أخبر، أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله عز وجل، ولولا أني أُخرِجْتُ منك ما خرجت»[١].

وجُريجٌ العابد يبتلى برؤية وجوه المياميس عياذًا بالله من ذلك:

أخرج البخاري ومسلم[٢] من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي، فجاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعيًا فأمكنته من نفسها، فولدت غلامًا، فقالت: من جريج، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا، إلا من طين».

وهذا سياق آخر عند مسلم:

عن أبي هريرة؛ أنه قال: كَانَ جُرِيجٌ يتعبَّدُ في صَومعَةٍ، فجاءت أمُّهُ.

قال حُميْدٌ: فَوَصَفَ لَنَا أَبو رَافعٍ صفةَ أبي هُرَيرَةَ لصفَةِ رسُولِ الله ﷺ أمَّهُ حينَ دَعَتْهُ كيفَ جعلَتْ كفَّهَا فوقَ حَاجبِهَا، ثُمَّ رفَعت رأسهَا إِلَيْه تَدْعُوهُ فقالَتْ: يَا جُرَيْجُ! أنا أُمُّكَ. كلِّمْني فصَادَفَتْهُ يُصَلِّي. فقَالَ: اللَّهُمَّ! أمِّي وصلاَتِي فَاخْتَارَ صلاته. فَرَجَعَتْ ثمَّ عادَتْ في الثَّانيَةِ فقالَتْ: يَا جُرَيْجُ! أنَا أُمُّكَ. فَكَلِّمْني. قَالَ اللهمَّ! أُمِّي وصلاَتِي. فَاخْتَارَ صلاَتَهُ. فقالَتْ:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥) بسندٍ صحيح.

(٢) البخاري (حديث ٢٤٨٢) ومسلم (حديث ٢٥٥٠).

اللهُمَّ ! إنَّ هذا جُرَيْجٌ . وهو ابْنِي . وَإنِّي كلَّمْتُه فَأَبَىٰ أنْ يُكَلِّمَني اللَّهُمَّ ! فلاَ تُمِتْهُ حَتَّىٰ تُرِيَهُ المُومِسَاتِ[١] .

قالَ : ولَوْ دَعَتْ عَلَيهِ أنْ يُفتَنَ لَفُتِنَ .

قَالَ : وكَانَ رَاعِي ضأنٍ يَأْوِي إلَىٰ دَيْرِهِ[٢] قَالَ : فَخَرَجتِ امرأَةٌ مِنَ القَرْيَةِ فَوَقَعَ عليْهَا الرَّاعِي .

فَحمَلَتْ فَولَدَتْ غُلامًا ، فَقِيلَ لَهَا : مَا هَذَا؟ قالتْ : مِنْ صَاحِبِ هَذَا الديرِ . قالَ : فَجَاءوُا بِفُؤوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ[٣] فَنَادَوْهُ فَصادَفُوه يُصَلِّي . فَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ .

قَالَ : فَأخَذُوا يَهْدِمُونَ دَيْرَهُ فَلَمَّا رَأىٰ ذلِكَ نَزَلَ إلَيْهِمْ فَقَالُوا لَه : سَلْ هَذِهِ .

قال فَتَبَسَّمَ ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ فَقَالَ : مَنْ أَبُوكَ؟

قَالَ : أَبِي رَاعِي الضَّأْنِ .

فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ ، قَالُوا : نَبْنِي مَاهَدَمْنَا مِنْ دَيْرِكَ بالذَّهَبِ والفضةِ .

قالَ : لا . ولَكِنْ أعِيدُوه تُرَابًا كَمَا كَانَ ، ثُمَّ عَلاَهُ» .

---

(١) (الموسات) أي الزواني البغايا المتجاهرات بذلك ، والواحدة مومسة وتجمع مياميس أيضًا .

(٢) (ديره) : الدير كنيسة منقطعة عن العمارة ، تنقطع فيها رهبان النصارىٰ لتعبدهم وهو بمعنىٰ الصومعة المذكورة في الرواية الأخرىٰ . وهي نحو المنارة . ينقطعون فيها عن الوصول إليهم والدخول عليهم .

(٣) (ومساحيهم) المساحي جمع مسحاة ، وهي كالمجرفة ، إلا أنها حديد .

وغلام أصحاب الأخدود
يُخبره العالم الجليل بأنه سيبتلى وقد كان

أخرج مسلم [١] في «صحيحه»: عن صُهَيبٍ؛ أنَّ رَسول الله ﷺ قال:

«كَانَ ملكٌ فيمنْ كـانَ قبْلَكمْ. وكانَ لهُ ساحرٌ فلمَّا كـبرَ قالَ للملك: إنِّي قد كبـرت، فَابعَثْ إلَيَّ غلامًا أُعلمْـهُ السحرَ. فبعثَ إليه غلامًـا يعلمهُ. فكانَ في طريقه، إذَا سلكَ راهبٌ، فقعدَ إليه وسمعَ كلامَهُ فأعْجَبَهُ فكانَ إذا أتى الساحرَ مَرَّ بالرَّاهب وقَعدَ إليْه. فإذَا أتى السَّاحر ضَرَبهُ. فشكا ذلكَ إلى الرَّاهب. فقالَ: إذا خَشيتَ السَّاحر فـقُلْ: حَبسَني أهْلي. وإذا خَـشيتَ أهْلَكَ فـقل: حَبَسني السَّاحـرُ. فبينمَـا هُو كذلك إذْ أتى على دَابَّة عظيـمة قَـدْ حبسَت النَّاسَ. فـقال: اليومَ أَعلَمُ آلسَّاحرُ أفْضَلُ أم الرَّاهبُ أفضلُ؟ فـأخذَ حَجرًا فقالَ: اللهُمَّ! إنْ كانَ أمْر الرَّاهب أحبَّ إليكَ من أمْرِ السَّاحِرِ فـاقتُل هذه الدَّابةَ حتَّى يَمضيَ النَّاسُ. فرمَاهَا فقتَلَهَا.

ومضَى النَّاسُ فأتَى الرَّاهبَ فأخبَرهُ فقالَ لهُ الرَّاهبُ: أي بُنيَّ! أنتَ اليوْمَ أفضَلُ منِّي قدْ بلغَ منْ أمـركَ ما أرَى. وإنَّكَ ستُبْتَلَى فَـإن ابْتُليت فَلا تدُلَّ عليَّ. وكَانَ الغُلامُ يُبـرئُ الأكْمهَ [٢] والأبْرصَ ويُداوي النَّاسَ منْ سائر الأدْواء. فسَمعَ جَليسٌ للمَلك كانَ قدْ عـمي. فأتاهُ بهدَايا كـثيرة. فقـالَ مَا هَهُنَا لك أجْمعُ، إن أنْتَ شفَيْتَني. فقالَ: إنِّي لا أشْفي أحدًا، إنَّمـا يشْفي اللهُ. فإنْ أنْتَ آمنْتَ بالله دعوْتُ اللهَ فشفَاكَ فآمنَ بالله فـشفَاهُ اللهُ، فأتى المَلِكَ فجلَسَ إليه

---

(١) مسلم (حديث ٣٠٠٥).

(٢) الأكمه الذي خلق أعمى.

كما كَانَ يجْلس فقال له المَلكُ من ردَّ عليْك بَصرك؟ قال: ربِّي، قال: ولك ربٌّ غَيْري؟ قالَ ربِّي وربّك الله، فأخذه فلَمْ يزلْ يعذِّبُه حتَّى دلَّ على الغُلام. فَجيء بالغُلاَم فقال لَهُ المَلكُ: أي بُنيَّ! قد بلغَ منْ سِحْرك ما تُبْرئُ الأَكْمَه والأبْرَص وتفْعَلُ وتفْعَلُ، فقال إنِّي لا أشْفي أحداً. إنَّما يَشْفي الله، فأخذه فلَمْ يزلْ يعذِّبُه حتَّى دلَّ على الرَّاهب، فجيءَ بالرَّاهب فقيل لَهُ: ارجعْ عَنْ دينكَ فأَبَى، فدَعَا بالمئشار[1] فوضَعَ المئشَار في مفْرق رأسه. فشقَّهُ حتَّى وقَع شقَّاه، ثُمَّ جيءَ بجَليس المَلك فقيل لَهُ: ارجعْ عَنْ دينك فأبَى فوضعَ المئشَار في مفْرق رأسه فشقَّهُ به حتَّى وقَع شقَّاه ثُمَّ جيء بالغُلاَم فقيل له ارجعْ عَنْ دينكَ فأبى فدفَعه إلى نَفَرٍ من أصحابه فقال اذْهبُوا به إلى جبل كذا وكذا فاصْعدُوا به الجبَلَ.

فإذا بلغْتُم ذُرْوته[2]، فإن رجَع عَنْ دينه وإلا فاطْرحُوه. فذهبُوا به فصعدُوا به الجبَلَ فقالَ اللهُمَّ! اكفنيهم بما شئْت. فرجَفَ بهمْ الجبلُ[3] فسقَطُوا وجَاء يَمْشي إلَى المَلك. فقال لَهُ المَلكُ: ما فَعَل أصْحابُك؟ قال: كفَانيهمُ اللهُ. فدَفَعهُ إلَى نفر من أصحَابه فقالَ اذهَبُوا به فاحْملُوه في قُرْقُور[4] فتوسَّطُوا به البَحْرَ فإنْ رجَعَ عَنْ دينه، وإلا فاقْذفُوه. فذَهبُوا به. فقالَ اللَّهُمَّ! اكفنيهمْ بما شئْتَ.

فانكفَأت بهم السَّفينة[5] فغرقُوا. وجاءَ يمْشي إلَى المَلك. فقالَ لهُ المَلكُ: مَا فَعلَ أصحابُكَ؟ قالَ: كفَانيهمُ اللهُ، فقالَ للملَك: إنَّكَ لَسْتَ بقَاتلي حتَّى تفعلَ ما آمرُكَ به. قالَ: ومَا هُوَ؟ قالَ: تجْمعُ النَّاسَ في صَعيدٍ[6] واحدٍ. وتَصلُبُني

---

(١) (بالمئشار): المراد المنشار، والله أعلم.

(٢) (ذروته): ذروة الجبل أعلاه، وهي بضم الذال وكسرها.

(٣) (فرجف بهم الجبل): أي اضطرب وتحرك حركة شديدة.

(٤) (قرقور): القرقور السفينة الصغيرة، وقيل: الكبيرة.

(٥) (فانكفأت بهم السفينة): أي: انقلبت.

(٦) (صعيد): الصعيد هنا، الأرض البارزة.

عَلَى جِذْعٍ . ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي . ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ (١) ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي . فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي .

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ. ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ : بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ. آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ.

فَأُتِيَ المَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللهِ! نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ (٢) قَدْ آمَنَ النَّاسُ فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ (٣) فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ (٤) فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا (٥) أَوْ قِيلَ لَهُ : اقْتَحِمْ فَفَعَلُوا . حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ (٦) أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الغُلَامُ : يَا أُمَّهْ! اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ» .

* * *

---

(١) (كبد القوس) : مقبضها عند الرمي .

(٢) (نزل بك حذرك) : أي : ما كنت تحذر وتخاف .

(٣) (بالأخدود) : الأخدود هو الشق العظيم في الأرض ، وجمعه أخاديد .

(٤) (أفواه السكك) : أي أبواب الطرق .

(٥) (فأحموه فيها) : ارموه فيها . من قولهم : أحميت الحديدة وغيرها ، إذا أدخلتها النار لتحمى .

(٦) (فتقاعست) : أي : توقفت ولزمت موضعها ، وكرهت الدخول في النار .

أما رسولنا محمد ﷺ فقد تنوعت عليه صنوف البلاء وتعددت عليه صوره

من تكذيب القوم وأذاهم له والسباب والشتم والخنق الشديد ووضع سلا الجزور على ظهره وهو يصلي، ومعاداة عددٍ من أقربائه له كعمه أبي لهب الطاغي الباغي، وحصاره في شعب أبي طالب مع أصحابه حتى أكل ورق الشجر حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة بعراً ثم محاولات القتل والطرد والإبعاد، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ثم هجرته ﷺ وفراقه لبلد الله الحرام تلك البلدة التي هي أحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إليه، وعيناه تذرفان فضلاً عن مفارقة الأهل والخلان كل ذلك لإيمانه بالرحيم الرحمن.

ولا يخرج هكذا آمنا مطمئنا؛ ويرصد له الكفار كل مرصدٍ ويعدون الجوائز والمنح لمن أتى به حيًّا أو ميتًا.

ثم يأتي المدينة ويمكث فيها ما شاء الله أن يمكث فيبتلى بأهل نفاق وبأعراب غلاظ شداد جُفاة، كما يبتلى بأهل كتاب خاصة اليهود فيكيدون له كيداً، ويتآمرون عليه تآمراً ويسعون في قتله مرة بمحاولات إلقاء الصخرة على رأسه وكان ذلك من أسباب غزوة بني النضير، ومرة بوضع السُّم له في الشاة المسمومة، ومرة بسحره، ومرات ومرات فضلاً عما يطعن به الطاعنون فيه، الذين يلمزونه في الصدقات الذين يتهمونه في عدالته،

ويقول قائلهم: اعدل يا محمد فإنك لا تعدل[١] ويقول الآخر: ﴿**لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**﴾ [المنافقون:٨]، فضلاً عن الطعن في أهل بيته كما حدث من أصحاب الإفك المؤتفك.

كل هذا إضافة إلى ما خاضه من حروب وما غزاه من غزوات فيشجُّ رأسه وتكسر رُباعيته، ويفقد عمه العزيز عليه حمزة، ويراه وقد مُثِّل به فضلاً عن الضر في الجسد، وفقدان الولد فضلاً عما كان فيه هو في صغره من يُتم إذ قد تربى يتيمًا، وعانى مما يعاني منه الأيتام صلوات ربي وسلامه عليه.

يضاعف عليه البلاء كما يضاعف له الأجر صلوات ربي وسلامه عليه وأخرج ابن ماجه[٢] بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدتُ حرَّه بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله، ما أشدها عليك! قال: «**إنَّا كذلك، يُضَعَّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر**» قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء**» قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: «**ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء**».

فحقًّا لقد تعددت عليه صور البلاء ولكن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

وأخرج الترمذي بإسناد صحيح لغيره عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه،**

---

(١) البخاري (حديث ٦١٦٣)، ومسلم (١٠٦٣)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) ابن ماجه (حديث ٤٠٢٤).

وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»[(١)] .

* **ومن الأذى الذي لقيه النبي ﷺ:** ما أخرجه البخاري[(٢)] من طريق عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد، قال : «**لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ، وكان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يُجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرنِ الثعالبِ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد ؛ ذلك فيما شئتَ، إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين[(٣)]؟** فقال النبي ﷺ: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**».

وأخرج الإمام أحمد[(٤)] بسندٍ صحيح عن أنس بن مالك، قال : قال رسول الله ﷺ : «**لقد أُوذيتُ في الله عز وجل وما يُؤذى أحدٌ، وأُخفتُ في الله وما يُخاف أحد، ولقد أتَت عليَّ ثلاثةٌ من بين يومٍ وليلةٍ ومالي ولعيالي طعام يأكُلُه ذو كبدٍ، إلا ما يُواري إبط بلالٍ**» .

---

(١) الترمذي (حديث ٢٣٩٨)، وله شواهد يصح بها.

(٢) البخاري (٣٢٣١)، وأخرجه مسلم (١٧٩٥).

(٣) الأخشبان : جبلان بمكة.

(٤) أحمد في «المسند» (٣/ ١٢٠).

* وهذا بعض ما لقيه النبي ﷺ من أذى:

أخرج البخاري ومسلم [(١)] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال بينا النبي ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش ، جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزورٍ فقذفه على ظَهر النبي ﷺ، فلم يرفع رأسه ، فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ، فقال النبي ﷺ : «اللهم عليك الملأ من قريش، أبا جهل بن هشام، وعُتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأُمية بن خلف ـ أو أُبيَّ بن خلف، شعبةُ الشاكُّ ـ فرأيتهم قُتلوا يوم بدر، فأُلقوا في بئرٍ غير أُمية بن خلف أو أُبي تقطعت أوصاله فلم يُلق في البئرِ».

وهؤلاء قومٌ ممن كانوا قبلنا وذاك شيء من ابتلاءاتهم

أخرج البخاري [(٢)] من حديث خباب بن الأرت ، قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو متوسط بردة له في ظلِ الكعبة ـ قلنا له : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال :

«كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيُجعل فيه ، فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون» .

---

(١) البخاري حديث (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤).
(٢) البخاري حديث (٣٦١٢).

٭ وهؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم لا يسلمون من الابتلاءات:

فأبو بكر يناله نصيب مما نال رسول الله ﷺ فيشاركه في كثير من محنه، يضرب ويُخرج من بلده ويتهم منهم باتهامات، فيطعن الطاعنون في ابنته وفلذة كبده الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها ويُتهم بأخذ الخلافة عنوة، وحرمان فاطمة بنت رسول الله ﷺ من ميراثها، وهو الصديق البار الراشد الذي تصدق بماله كله زمن رسول الله ﷺ.

٭ وعمر الفاروق رضي الله عنه المُحدث الملهم أمير المؤمنين العادل البار الراشد يقتل في المحراب وهو يُصلي!!!

٭ وعثمانُ الحيي الكريم رضي الله عنه المنفق المحسن المتصدق أحد السابقين الأولين يقتل بأيدي مسلمين وهو يتلو كتاب ربه!!!

٭ وعليٌّ رضي الله عنه ابن عم رسول الله ﷺ وختنه (زوج ابنته) السابق إلى الإسلام مع السابقين الأولين بل قيل: إنه الأسبق مطلقًا، المجاهد المغوار يقتل بعد صلاة الفجر كذلك!!!

٭ وابنه الحسين أحد سادات شباب أهل الجنة ابن بنت رسول الله ﷺ يقتل بأيدي مسلمين!!!

٭ وابن عباس الحبر الكريم الذي دعا له رسول الله ﷺ بالفقه في الدين وتعلم التأويل يبتلى في عينيه فيصاب بالعمى رضي الله عنه!!!

٭ والصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ترمى بما رُميت به من الإفك والزور والبهتان ويتأخر نزول الوحي على رسول الله ﷺ زمانًا، ويخوض في عرضها من خاض، ويهلك في شأنها من يهلك.

*** وبنحو هذا الابتلاء بالطعن في الأعراض:** ابتلي يوسف ﷺ بامرأة تقول لزوجها ، في شأن الصديق يوسف عليه السلام : ﴿ **مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[يوسف:٢٥] .

*** وبنحوه أيضًا يبغون على مريم ويفترون عليها:**

وقد حكىٰ الله مقالتهم إذ قال : ﴿ **وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء:١٥٦] .

وأيضًا قد قالوا : ﴿ **يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ﴾[مريم:٢٨] .

*** وها هي جارية تتهم وتبتلى:**

أخرج البخاري(١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن وليدة كانت سوداء لحي من العرب فأعتقوها فكانت معهم ، قالت : فخرجت صبية لهم عليها وشاح أحمر من سيور ، قالت : فوضعته ـ أو وقع منها ـ فمرت به حُدَيَّاةٌ وهو ملقىً ، فحسبته لحمًا فخطفته ، قالت : فالتمسوه فلم يجدوه ، قالت : فاتهموني به ، قالت : فطفقوا يفتشون حتىٰ فتشوا قبلها ، قالت : والله إني لقائمة معهم إذا مرت الحدياة فألقته ، قالت : فوقع بينهم ، قالت : فقلت : هذا الذي اتهمتموني به ، زعمتم وأنا منه بريئة وهو ذا هو ، قالت : فجاءت إلىٰ رسول الله ﷺ فأسلمت ، قالت عائشة : فكانت لها خباء في المسجد ، أو حفش ، قالت : فكانت تأتيني فتحدث عندي ، قالت : فلا تجلس عندي مجلسًا إلا قالت :

ويوم الوشاح من تعاجيب ربنا ... ألا إنه من بلدة الكفر أنجاني

---

(١) البخاري (حديث ٤٣٩).

قالت عائشة: فقلت لها: ما شأنك لا تقعدين معي مقعداً إلا قلت هذا؟

قالت: فحدثتني بهذا الحديث.

*** وكثيرًا ما يُبتلى أهل الإيمان بتسلط أعدائهم عليهم:**

قال تعالىٰ: ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ **لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ **وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٢٧].

*** وكثيرًا ما يبتلى العبد بافتراء المفترين وكذب الكذابين:**

فالذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر لا يتورع أن يصف الخلق بما شاء وما يريد فيهم، كان هذا الوصف أم ليس فيهم، فما الذي يمنع الفاجر من قذف هذا بالزنا، وقذف ذاك بالسرقة، وقذف الآخر بالخيانة؟!

وما الذي يمنعه من اغتيابهم، وهو لا يؤمن باليوم الآخر ولا يراقب ربًّا؟!

وهذه تهمٌ يقذف بها سعد بن أبي وقاص أول من رمى بسهم في سبيل الله وهو منها بريء:

أخرج البخاري [١] من حديث جابر بن سمرة قال: شكا أهل الكوفة

(١) البخاري (حديث ٧٥٥).

سعدًا إلىٰ عمر رضي الله عنه، فعزله واستعمل عليهم عَمَّارًا فَشَكَوا حتىٰ ذكروا: أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي؟ قال أبو إسحاق: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاةَ رسول الله ﷺ ما أخرمُ عنها، أصلي صلاةَ العشاء فأركدُ في الأولين وأخفُّ في الأخريين، قال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، فأرسل معه رجلاً ـ أو رجالاً ـ إلىٰ الكوفة، فسأل عنه أهل الكوفة، ولم يدَع مسجدًا إلا سأل عنه ويُثنون معروفًا، حتىٰ دخل مسجدًا لبني عبس، فقام رجل منهم، يقال له: أسامة بن قتادة ـ، يكنىٰ أبا سعدة ـ قال: أما إذ نشدتنا، فإن سعدًا كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياءً وسمعة فأطل عُمره، وأطل فقره وعَرِّضه بالفتن، وكان بعد إذا سُئل يقول: شيخ كبير مفتون، أَصابتني دعوة سعد.

قال عبد الملك[1]: فأنا رأيته بعد قد سَقط حاجباه علىٰ عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجوَاري في الطرق يغمزهن.

* وقدْ يُبتلى الشخصُ بتيسير أسبابِ المعصيةِ له:

وقلَّ مَنْ يفهمُ ذلك، وقلَّ من يدرك ذلك، وقلَّ من يتفطن له وقد دَّلت عليه أدلة كثيرة من كتاب الله عزَّ وجل فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ **تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ** ﴾ [النحل: ٩٢].

وحاصل ذلك أن شخصًا، أو قومًا قد يُعاهدون قومًا عهدًا ويُبرمون

---

(١) وهو أحد الرواة.

معهم أموراً واتفاقيات ويؤكدون ذلك بالأيمان أحيانًا فيأتي من هو أكثر عدداً ومالاً وأقوىٰ عُددًا، فينقض الشخص أو القوم عهدهم مع القوم الأولين، ويتعاهدون مع مَنْ هو أكثر عدداً ومالاً وأقوىٰ عُددًا.

ووجه ذلك الابتلاء أن الله سبحانه وتعالىٰ ساق القوم (الذين هم أقوىٰ عددًا. . .) إلىٰ الأولين اختباراً لهم كما قال سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ** ﴾ [النحل: ٩٢] ليُعلم هل يثبتوا علىٰ العهود الأُولَىٰ ويُحَافِظُوا عليها أم يَنْقُضُوها ويَغْدُرُوا.

فقد تُخْطَبُ فَتَاةٌ وتَرْكَنُ - هي وأهلُها - إلىٰ الخَاطِبِ ويُعلنون للخاطب الموافقة علىٰ الخطبة، ويرضَىٰ بها خاطبها ويطمئنُّ إلىٰ مخطوبَتِه فتصبح فلانةٌ مخطوبةٌ لفلان، فيأتي آخر يريد أن يخطبها ويعرض من المال أضعاف ما عرضه الأول، فَتُرَىٰ مَنْ الذي سَاقَ هذا الآخَرَ لخطبتها، وقد خُطبت؟!!

إنه ابتلاء من الله (عزَّ وجل) لأهل الفتاة وللفتاةِ معًا.

هل يثبتوا علىٰ الخطبة الأولىٰ أم ينقضوها.

وثَمَّ رجلٌ باع بيتًا وتمَّ البيعُ وتفرَّقَ المجلس، وقد باع هذا البيت بمائةِ ألف، فبعد أن تم البيع جاء رجل آخر يريد أن يشتري البيت من البائع الأول الذي قد باع فيعرض عليه المشتري الجديد أن يشترِيَ منه البيتَ الذي قد باعه بثلاثمائة ألف، فحينئذٍ يُفكر كيف ينقض البيعَ الأولَ كي يعقدَ الصَّفْقَةَ مع الشخصِ الجديد، فتُرَىٰ مَنْ الذي ساق هذا المشترِي الجديد كي يُغْرِي البائع بنقض البيع الأول، وقد قال الرسول ﷺ: «**لا يبعْ بعضكم على بَيْع أخيه ولا يخطب على خِطبة أخيه**».

ويحضرني في هذا السببُ في كون شهادة خزيمة بن ثابت عدلت شهادة رجلين.

أخرج الإمام أحمد[(١)] في مسنده من طريق عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه ـ وهو من أصحاب النبي ﷺ ـ أن النبي ﷺ ابتاع فرسًا من أعرابي فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه فأسرع النبي ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومون بالفرس، لا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتىٰ زاد الأعرابي في السوم علىٰ ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبي ﷺ، فنادىٰ الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاع هذا الفرس فابتعه وإلا بعته فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «**أو ليس قد ابتعته منك؟**» قال الأعرابي: لا والله ما بعتك فقال النبي ﷺ: «**بلى قد ابتعته منك**» فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي، وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك النبي ﷺ لم يكن ليقول إلا حقًا حتىٰ جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ، ومراجعة الأعرابي، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته.

فأقبل النبي ﷺ علىٰ خزيمة فقال: بم تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة شهادة رجلين.

وقد يُعاهد قومٌ قومًا آخرين عهدًا وتكون بينهم هدنة فلا يعتدي أحدٌ علىٰ الآخر خمس سنوات ثم تلوحُ لفريقٍ منهم غرّةٌ يراها منَ الآخر ويمكنه فيها إذا انقضَّ عليه أن يُبيدَه، وأن ينتصرَ عليه، وتلك الغيرة جعلها الله اختبارًا للقوم هل يحافظون علىٰ العهد والميثاق ممتثلين قولَ الله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة: ١]. وقوله تعالىٰ: ﴿**فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [التوبة: ٤] أم أنه يتجاوز هذا كله طمعًا وغدرًا وخيانة ونقضًا؟!!

---

(١) الإمام أحمد (٥/ ٢١٥)، وأبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٧/ ٣٠١).

* ومن الابتلاءات بتيسير أسباب المعصية:

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٩٤].

فكما هو معلوم أن الشخص المُحرم لا يجوز له أن يصطاد لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ**﴾[المائدة: ٩٥].

فقد يتلبَّس شخصٌ بالإحرام ويُهِلُّ بالحج أو بالعمرة ثم يظهر له صيدٌ عظيم سمين، يظهر له بقر وحشيٌّ، (حلال أكله) وبيده السهم من الممكن جدًّا أن يصطاده فيصبح بالصيد ثريًا من الأثرياء؛ إذ الصيد سمينٌ وسهلٌ وقريب، ولا يكلف الرجل كبير جهد ولا كبير تصويب.

فترى مَنْ الذي ساق الصيد؛ إنه ابتلاء من الله تعالى كما قال تعالى: ﴿**لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٩٤].

وقد تُساق الأرانب والطيور والمُحرم جائعٌ وبإمكانه صيدها وسد جوعته، ليُعْلَمَ هل يعتدي؟ أم أنه سيحافظ على حدود الله عز وجل.

وأيضًا قد يرى المُحرم لقطةً كبيرة، مبلغًا ماليًّا طائلاً أو قطعة كبيرة من الذهب، يراها مُلقاة في مكة - البلد الحرام - وقد علم أن لقطتها لا تُلْتَقَط إلا لمُنْشِد ليُعلم هل يقف عند حدود الله؟ أم أن الطمع يحمله على اكْتنازها والاستمتاع بها.

فمَنْ الذي ساق له هذه القطعة، ومن الذي أوقع بصره عليها؟!!! إنه ابتلاءٌ وإنها فتنة!!

* **ومن الابتلاءات بتيسير أسباب المعصية ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر**، فهم أهل قرية من بني إسرائيل كانت قريتهم مجاورة البحر، وكانوا - باعتبارهم من بني إسرائيل - قد حُرم عليهم الصيدُ يوم السبت، إذ الله قال: ﴿**وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ [النساء: ١٥٤]، فكانوا قد أُخِذَتْ عليهم أشد العهود وأغلظ المواثيق ألا يَعْدُوا في السبت، ومن هذا ألا يصطادوا، ولكن شاء الله وقدَّر أن يبتليَهُم لفسقهم، ابتلاهم بتيسير أسباب المعصية لهم استدراجًا منه لهم؛ بسبب فسقهم فكانوا يخرجون للصيد في سائر أيام الأسبوع (باستثناء السبت) فيطرحوا الشباك فلا يعثرون من الأسماك على شيء، بل تخرج الشباك كما طُرحت، فيتخلف السمك ويهرب أما إذا كان يوم السبت، وهو اليوم الذي حُرم عليهم فيه الصيد فتأتي الحيتانُ من كل صَوْبٍ وحدَب.

تأتيهم بكميات كبيرةٍ جدًّا، تأتيهم شارعة ظاهرةً باديةً على وجه الماء، فُرادَىٰ وجماعات تُغْريهم باصطيادها كأنها تقول لهم: خذوني.. خذوني، فتُرَىٰ مَنْ الذي ساقها يومَ السبت، وأخْفَاها في سائر الأيام؟ إنه الله سبحانه وتعالىٰ يبتلي مَن شاء بما يشاء، فوقع القوم في المحظور، وحَلَّ بهم من العقاب ما حلَّ، قال تعالىٰ: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**

(١٦٥) **فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾[الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

*** وهذا ابتلاءٌ آخر بتيسير أسبابِ المعصية:**

لقد حدث هذا الابتلاء لطائفة أيضًا من بني إسرائيل من بعد نبي الله موسىٰ (عليه السلام)، أَلاَ وهي الطائفة التي خرجت للقتالِ مع الملك الصالحِ طالوت، لقد ابتلاهم اللهُ بنهرٍ يمرون عليه، ومنعهم نبيُّ الله طالوتُ من الشُّرْبِ منه، إلا من اغترف غُرْفَةً بيده فيا سبحان الله! القوم يمرون علىٰ النهر وهم عِطَاش، وقد حذَّرهم نبيهم من الشرب منه إلا من اغترف غرفة بيده، والماء عذبٌ والقوم عطاش، وذاقوا طعم النهر بالغرفة التي اغترفوها منه، فلم يصبر أكثرُهم عن الشُّرب وهذا قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة: ٢٤٩].

أعود فأقول: إن هذا النوع من أنواع الابتلاء لا يكاد يُدرك، ولا يتفطن له إلا الورعون الأتقياء البررةُ الأوفياء.

إن المرأة قد تُبتلىٰ بهذا الابتلاء فترىٰ مال زوجها أمامها والزوج لم يُتقن العَدَّ ولم يحصيه فتُسَوِّلُ لها نفسها ما تسوله، والمحفوظةُ مَنْ حفظها الله.

وقد يتغيب زوجها ويتردد عليها أخوه (الذي هو الحمو) الذي هو في خطره وضرره كالموت، والشبهة مندفعة وأعين الناس لا تدرك ولا تكاد تدرك، وكل هذا من الابتلاء وكل ذاك من الفتن.

وكذا الرجل قد يَسْتَضْعِفُ امرأتَهُ ويستضعف أَهْلَهَا وينال منها بالسب والشتم والضرب والإهانة ، ويخفى عليه أن الله كان عليًّا كبيراً .

فعلى الجميع أن يراقب الله ويعلم أنه إنْ لم يكن يرى ربه فإن ربه يراه : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾[الشعراء : ٢١٨ ، ٢١٩] .

﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [هود : ٥] .

فليعلم الجميع أن الله سميع ، وأن الله بصير ، وأن الله يرى .

فتنة المال

* قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] .

وقد فشل قارون وفتن بالمال ؛ فخسف به وبداره الأرض !! والأقرع والأبرص قد فشلا في الاختبار أيضًا !! .

وقد قال رسول الله ﷺ: «إن لكل أمة فتنة وفتنةُ أمتي المال»(١) .

وفي حديث آخر يقول فيه النبي ﷺ لأصحابه: «فوالله، لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخْشى عليكم أن تبسط عليكم الدُّنيا كما بُسطت على من كان قَبلكم، فتنافسوها كما تنافَسوها وتهلككُم كما أهلكتهم»(٢) .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٦)، بسندٍ حسن من حديث كعب بن عياض رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) البخاري حديث (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١) .

مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[التوبة: ٧٥, ٧٧].

*** وقد ابتلي أصحاب الجنة بجنتهم:**

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

فما نجحوا في الابتلاء ولكنهم أخفقوا فيه.

*** وابتلي صاحب الجنتين بمثل ذلك فما وفِّق،** بل قال لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. وقال أيضًا: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥]. فماذا كان؟

كان أن: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٢].

*** وكذا ابتلي الطاغي الباغي قارون فما أفلح وما نجح:**

بل قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص: ٧٨]. فكان من أمره أن خسف الله به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرًا.

*** وهذا نوعٌ آخر من البلاء إنه الافتتان بالأشخاص:**

أخرج البخاري[1] من طريق أبي مريم عبد الله بن زياد الأسدي قال: «لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، بعثَ عليٌّ عمارَ بن ياسر وحسن ابن عليٍّ، فقدما علينا الكوفة، فصعدا المنبر، فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه، وقام عمارٌ أسفل من الحسن، فاجتمعنا إليه، فسمعتُ

(١) البخاري (حديث ٧١٠٠).

عماراً يقول: إن عائشة قد سارت إلى البصرة، والله إنها لزوجةُ نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم، ليعلم إيَّاه تُطيعون أم هي؟».

وفي رواية أخرى عند البخاري[١]: «قام عمَّارٌ على منبر الكوفة، فذكر عائشة وذكَر مسيرها، وقال: إنها زوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكنها مما ابتليتم»[٢].

فحقًّا: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾[البلد: ٤].

وصدق الله، ومن أصدق من الله قيلاً ومن أصدق من الله حديثًا، يخرج الطفل من بطن أمه بعد مكثه فيها ما قدره الله له من المكث ثم يخرج باكيًا فيجوع ويتألم ولا يستطيع الإفصاح عما به، ثم يأتيه الفطام أشد عليه من وقع السهام، ثم يشتد شيئًا ما فيبتلى بمن يضربه ويظلمه، ثم يواصل التعلم فيبتلى بعصا المعلم، معلمٌ يرحم، وآخر لا يعرف للرحمة سبيلاً فيضرب الصبي ويؤذي، ويتصرف بجهل فيفسد لضعف عقله، ولكن قلَّ من يعذره.

ويبتلى في اختبارات بنجاح ورسوب، وتفوق وإخفاق وحسد الزملاء والجيران، والاختلاط بالفتيات والفتيان.

وتدب فيه الشهوة، ولا يُدرى هل يُحفظ أم ينهار ويُفتن؟

ثُم يُبتلى بوظيفة، وهل يجد وظيفةً أو لا يجد؟ وهل يجد عملاً آخر غير الوظيفة أو لا يجد؟

---

(١) البخاري (٧١٠١).

(٢) فيه دليل على: أنه ينبغي للمسلم ألا يفتتن بشخص مهما علا قدره وذاع صيته، إلا أن يعرض أعماله على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فإن وَجَد العمل موافقًا لكتابِ الله وسنة رسول الله ﷺ عمله، وإلا تركه.

وللعمل ابتلاءات، وبالعمل فتن: فتنٌ بطبيعة العمل، وبرئيس العمل، وبزميل العمل وبمكان العمل، فكلٌّ فيه فتن وابتلاءات وكل منه محنٌ وآفات.

ثم يجمع من المال ما يجمع، ويخسر ما يخسر.

ويأتيه الزواج فيفكر في بيتٍ، ويفكر في زوجة، ويتزوج ويسكن إذا شاء الله ذلك وقدر! ثم ابتلاءات الزوجة هل هي صالحة أم طالحة، هل قنع بها أم لم يقنع؟!!

هل أنجبت أم أنها عقيم؟!!

وما علاقة الزوجة بالأم؟!! وما علاقتها بالوالد وما علاقتها بالجيران؟!!

وهل الزوجة صاحبة مشاكل وفتن؟أم أنها من الصالحات الفضليات؟!!

وإذا رزق بالولد ما حال الولد؟ وما صحته؟

وما الداء الذي به؟ ولمَ يبكي؟ ولم يتألم؟ ومن الطبيب الناصح؛ ومن الزميل التقي الورع؟ ومن المدرس النجيب الذي يتولاه؟

وهل الولد نجح أم رسب؟ وهل البنت أنجبت أم لم تنجب؟

وكيف حال البنت مع زوجها هل هو شريرٌ مؤذٍ؟ أم هو صالح تقي يراقب الله ويخشاه؟

هذا كله فضلاً عما يعتري بني آدم من ضيق المعاش ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.

فيبتلى بموت عزيز، وفقدان قريب وتحل به الأمراض والأسقام، ثم شيخوخة لا يستطيع لها دفعًا، ولا منها مهربًا وموتٌ ولات حين مناص.

فيبتلى إما بملائكة رحمة أو بملائكة عذاب أعاذنا الله من صور العذاب

ومن ملائكة العذاب ثم ابتلاء بقبر إما موحشٍ مظلم، وإما روضة من رياض الجنان.

ثم دعوة الداع إلى شيءٍ نكر؛ فخروج من الأجداث كالجراد المنتشر.

هنالك ابتلاءات، دنو الشمس من رؤوس الخلائق، عَرَقٌ يغمر الناس على قدر أعمالهم إما إلى حقوي المرء، وإما إلى ركبتيه وإما إلى كعبيه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً.

وثمَّ صراطٌ وما أدراك ما الصراط، وثمَّ موازين ثقَّل الله موازيننا وأنجانا، وثم تناول للكتب إما باليمين جعلنا الله فيمن يتلقون كتابهم باليمين، وثمَّ من يتلقون الكتب بالشمال فيقول قائلهم: يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه، ابتلاءات وابتلاءات وابتلاءات ابتلاء بقصاص المظالم، وبالسؤال عما قُدِّم في الحياة الدنيا.

لا تنتهي الابتلاءات إلا بالاستقرار في فسيح الجنان أسكننا الله والمؤمنين الفردوس ونجانا الله من كل بلاء.

من فوائد الابتلاءات والمصائب

* إن المؤمن الصابر الشاكر ليجني من وراء الابتلاءات والمصائب عظيم الأجور وجميل الحسنات؟!

* إنه ليرتقي إلى أعالي الدرجات!!

* إن الملائكة تشهد له بخير، إنها تكتب صبره وثباته في سجل الحسنات!!

* بل إن الله عزَّ وجلَّ يباهيهم به.

ويشهد له ربه بخير ويُكافئه بجميل الأجر.

* لقد أثنىٰ ربي علىٰ أيوب عليه السلام بقوله : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص : ٤٤] .

* لقد أثنىٰ ربي علىٰ يوسف عليه السلام فقال : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

* لقد أثنىٰ ربي علىٰ نوح عليه السلام فقال : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾[الإسراء : ٣] .

وقال في معرض الإنعام عليه : ﴿ **كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ** ﴾[القمر : ٣٥] .

إن أهل الإيمان والصبر تُحط عنهم بالابتلاءات الذنوب والأوزار ، وترتفع لهم الدرجات ، وتُمحىٰ عنهم الخطايا ! !

* إن أمرهم لعجيب إن ابتلوا فصبروا كان ذلك خيراً لهم وإن أصابتهم الضراء فشكروا كان ذلك خيراً لهم ! ! إنهم في خيرٍ علىٰ الدوام .

قال رسول الله ﷺ : «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خيرٌ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**» (١) .

* إن أهل الإيمان ليصلون في الدنيا فضلاً عن الآخرة، بصبرهم علىٰ البلاء إلىٰ مراتب علية، إنهم يحظون بدرجة الإمامة في كثير من الأحيان .

* إنهم يستدركون ما فات من أمرهم .

* إنهم يقدمون استغفاراً لذنوبهم .

* إنهم يؤوبون إلىٰ ربهم ويرجعون .

* إن قلوبهم ترق للمصائب، وإن أعينهم لتدمع !

* إنهم يلتمسون المعاذير للناس، ويقيلون عثرة من تعثر .

---

(١) مسلم (حديث ٢٩٩٩)، من حديث صهيب رضي الله عنه مرفوعاً .

❊إن إيمانهم يقوىٰ ويقينهم يزداد، وبصيرتهم تتقد وتوحيدهم يصح، وتنجلي عنهم سحب الباطل والغفلات، ولقد علموا معنىٰ الإيمان بالقدر، وازداد يقينهم وعلمهم به من جرَّاء البلاء.

فلم يأسوا علىٰ ما فاتهم!!، ولم يفرحوا بما آتاهم!!

لقد علموا أن الله لا يحب كل مختال فخور

إنهم يتعرفون بما حلَّ بهم ونزل علىٰ من يُحبهم ويميزون من المبغض لهم والشانئ!!

إن معاني القرآن ونصوص السنة تتفتح أمامهم وتتجلىٰ لهم معانيها، فيعرف أحدهم معنىٰ: ﴿ **لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فيلهج به لسانه، ويستوعبها فؤاده، ويعمر بها قلبه.

إنه يدرك معنىٰ (حسبي الله ونعم الوكيل) إذا خوَّفه المخوفون، وأرجف له المرجفون.

إنه يدرك معنىٰ (لا حول ولا قوة إلا بالله) ويفهم منها معنىٰ الاستسلام والانقياد، والضعف الذي يعتري بني آدم، ويدرك أن الأمر كله لله.

إنه يفهم تمام الفهم بعد أن يحل به البلاء، ويعجز عنه الأطباء، يفهم معنىٰ: ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾ [الشعراء: ٨٠].

إنه ليدرك بعد حلول الخسارة بأمواله أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

إنه يتعرف علىٰ من شاركوه في نفس البلاء، ويقرأ سير من سبقوه في هذا الصدد والمضمار.

ويكفيه أن ربه يثني عليه ويبارك عليه، وصلوات ربي ورحماته تنزل به وتحل، ويهديه ربه إلىٰ سواء السبيل.

فحقًّا: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٥٥: ١٥٧]. جعلنا الله ممن يصلي عليهم ربهم وممن رحمهم وهداهم آمين، آمين، آمين.

* ثم هذه جملة من الفوائد:

لمن ابتلي فصبر، ولمن وسع عليه فشكر نسوقها بشيء من التفصيل بعد الإجمال سائلين الله أن يربط بها على القلوب، وأن ينزل معها السكينة، وأن يُلهم أهل الابتلاء معها مزيداً من الصبر واليقين، والتوفيق بالله ومن الله، والخير كله بيديه آمين.

فإلى شيء مما ذكرناه، والله المستعان.

من فوائد الابتلاءات:

حمل العبد على الاستغفار والتضرع والرجوع إلى الله عزَّ وجل:

وقد دلَّت على ذلك أدلة كثيرة، فمن ذلك.

* قوله تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] أي وبلوناهم بالخيرات أحياناً لعلهم يقدموا شكراً لخالقهم فلم يفعلوا ولم يعبئوا فبلوناهم بالسيئات أي: بالمصائب والخسائر وأنواع الضُرِّ في الأبدان لعلَّ هذه المصائب وتلك الخسائر وأنواع الضرِّ تردهم إلى طريق ربهم وخالقهم.

* وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤].

أي: أصبنا أهلها بضيق في المعاش، وقلةٍ ونقص في المال والرزق،

وأحيانًا تسليط عدوهم عليهم، وكذا ابتليناهم بالضر في الأبدان، ومزيدٍ من الأمراض والأسقام، كل ذلك حتىٰ يرفعوا أكفَّ الضراعة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فيوحدوه ويعلموا أنه لا كاشف لما هم فيه إلا الله، وليعلموا أن ما أصابهم إنما هو بذنوبهم فيقدموا لذلك استغفاراً ولكن كل هذا لا يُجدي مع من خُتم علىٰ قلبه، قال تعالىٰ: ﴿ **ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ** ﴾ [الأعراف: ٩٥] أي: لعل النعم تُجدي معهم وتحملهم علىٰ شكر المنعم عليهم بها، ولكن ما أجدت النعم معهم أيضًا، بل قالوا: ﴿ **قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ** ﴾ [الأعراف: ٩٥]. فلما لم تجد فيهم الابتلاءات بالضراء والسراء، قال تعالىٰ: ﴿ **فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٩٥].

أما أهل الإيمان، فينتفعون بمثل هذه الابتلاءات فهم يعلمون أن ما أصابهم بسبب كسبهم؛ إذ الله قال: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾[الشورىٰ: ٣٠].

يعلمون أن العذاب ينزل في كثير من الأحيان بسبب الذنوب، وكذا الابتلاءات في الأموال والأولاد والضرِّ في الأبدان كل ذلك كثيراً ما يكون سببه العصيان والتمرد علىٰ أمر الله، وكلُّ ذلك يرتفع بإذن الله ثم بالاستغفار والتضرع والدعاء.

قال تعالىٰ: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾

[الانفال: ٣٣].

فيقدمون توبةً وأوبةً واستغفاراً لما صدر منهم فيكشف الله عنهم العذاب.

ومن الدليل أيضًا علىٰ أن الابتلاءات تحل بالعباد وتنزل بهم لإرجاعهم إلىٰ طريق الله عزَّ وجل.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦] فيفترض أن العذاب يرُجعهم إلى الله، ولكن من خُتم على قلبه لا يستفيد بذلك قال تعالى: ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

ومن الدليل أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي: ولقد أصبنا آل فرعون بسنوات شدة، وبالمجاعات وقلة الثمرات، كل ذلك لماذا؟ قال تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، فوعدوا أن يتعظوا وأن يهتدوا فقالوا: ﴿ يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٩] فرفع العذاب، ولكن هل استجابوا؟؟!!

هل استفادوا؟؟؟ هل اهتدوا؟؟ وهل قاموا بما عاهدوا الله عليه؟؟

كلا، فكل ذلك لم يحدث.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٠].

* ومن الدليل أيضًا على أن العذاب والابتلاءات تحلُّ وتنزل لإرجاع الناس إلى طريق ربهم، قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الزخرف: ٤٨].

فكلها آيات دالة على أن الابتلاءات تتأتى كثيرًا لإرجاع الناس إلى ربهم وطريقه المستقيم، وذلك واضح من قوله تعالى: (لعلهم يتضرعون ـ لعلهم يضرعون ـ لعلهم يرجعون ـ لعلهم يذكرون)!! ولكن ينتفع بذلك من ينتفع، ويفقه ذلك من يفقه.

ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء.

* **وبصورة أخص وأوضح نقول إن من فوائد الابتلاءات منع الناس من الطغيان والتمادي في الغي،** فمن المعلوم أن الإنسان كلما تكاثرت عليه النعم ازداد طغيانًا وكبراً على المخلوقين، بل وتمرداً على الخالق سبحانه وتعالى.

*قال تعالى: ﴿ **كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ [العلق: ٦، ٧].

أي: أن الإنسان يبدأ في الطغيان ويستمر فيه ويتمادى كلما رأى نفسه مستغنيًا بماله عن الناس، وكذا مستغنيًا بصحته وعافيته، وذريته وأولاده وعشيرته.

فهذه حال الإنسان، تطغيه أمواله، ويطغيه أولاده ويطغيه الاغترار بعشيرته وأقربائه ومنصبه وجاهه وكلما أمده الله من ذلك كلما ازداد طغيانًا، وهذا في غالب الأحوال، فقليل من العباد الشكور.

وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ** ﴾[الإسراء: ٨٣].

فالإعراض يتأتى، ومن أسبابه الإنعام على الشخص.

وقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ** ﴾ [الزمر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ** ﴾ [الشورى: ٢٧].

فكل هذه أدلة على ما ذُكر من أن الإنسان إذا وُسع عليه في ماله ورزقه وإذا عُوفي في بدنه وولده يزداد طغيانه ويزداد انحرافه وتعاليه وكبره وغروره، وهذا في غالب الأحوال، فأحيانًا يُبتلى حتى لا يتمادى فيما هو فيه من الغي.

فتخيل أن شخصًا ما يمتلك مالاً يزني به ويَسْكَر ويلهو به عن المكتوبات ويلعب، فأيهما أولىٰ له، هل الأولىٰ له في دينه أن يُسلب منه هذا المال؛ أم يبقىٰ في يده يعصي به ربَّه تبارك وتعالىٰ، ويؤذي به العباد، ويُفسد به في البلاد؟

فأحيانًا قد تحل الخسارات بالعباد لمنعهم من المعاصي!!

وأحيانًا تُكسر رجل شخص حتىٰ لا يذهب بها إلىٰ الزنا وإلىٰ معصية الله!!

وأحيانًا تُفقأ عين شخصٍ حتىٰ لا ينظر بها إلىٰ ما يُرديه في جهنم والعياذ بالله؟!!

وأحيانًا تقطع يد شخصٍ، وذلك بحادثٍ يُصاب فيه لمنعه من السرقة.

علىٰ سبيل المثال:

فرعون - لو كان أخرسًا - هل تراه يقول أنا ربكم الأعلىٰ؟!!

وهذا المعتدي الباغي الذي يتسلق الأسوار ويسرق العمائر والبيوت لو كان كسيحًا مُقطع الأرجل هل ترىٰ يفعل ما فعل؟!

فلله الحكمة البالغة ولو شاء لهداكم أجمعين.

وانظر إلىٰ هذا المعنىٰ الموجود في حديث رسول الله ﷺ إذ قال: **«اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف»**.

فيسأل رسول الله ﷺ ربه - تبارك وتعالىٰ - أن يعينه علىٰ المشركين بسنوات شدة، تقل فيها الأمطار وتقل فيها الأرزاق ويقلُّ فيها الثمار كتلك السبع العجاف التي كانت علىٰ عهد نبي الله يوسف ﷺ حتىٰ يحملهم هذا البلاء علىٰ الرجوع إلىٰ الله والتضرع إليه وسؤاله.

وقد كان بعض ذلك فحلَّ بالقرشيين البلاء حتىٰ أكلوا الجيف ـ جيف الموتي ـ وقضُّوا النوىٰ، وأكلوا ورق الشجر حتىٰ إن أحدهم من شدة الجوع كان ينظر إلىٰ السماء فلا يرىٰ من فوقه إلا الدخان من شدة الجوع، قال تعالىٰ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[الدخان: ١٠-١٥].

فقد ورد في تفسير هذه الآيات ما أخرجه البخاري[(١)] وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إنَّ قريشًا لما غلبوا النبي ﷺ واستعصوا عليه قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنةٌ أكلوا فيها العظامَ والميتةَ من الجهد، حتىٰ جعلَ أحدُهم يرىٰ ما بينه وبين السماء كهيئة الدُّخانِ من الجوع، قالوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[الدخان: ١٢] فقيل له: إن كشفنا عنهم عادوا، فدعا ربَّه، فكشف عنهم فعادوا، فانتقمَ الله منهم يوم بدر، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ـ إلىٰ قولهِ جلَّ ذكره ـ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[الدخان: ١٠-١٦].

*** ومن فوائد المصائب تجريد التوحيد، والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى وحده:**

قال تعالي: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧].

فتنقشع سحب الشرك عن المرء إذا غشيه في البحر موجٌ كالظلل، فحينئذٍ يدعو الله مخلصاً له الدين.

---

(١) البخاري (٤٨٢٢).

وكذا إذا ألمت به نازلة ، أو حلَّ به مرض، ولم يجد كشفًا لما به من ضرٍّ عند البشر ، فإنه يتجه إلىٰ رب البشر سائلاً إياه قضاء الحوائج وتفريج الكربات، وكشف الضر ورفع البلاء.

* ومن فوائد الابتلاءات تعزيز الإيمان بالقدر وتقويته:

فقد يكون هناك طالب في مدرسة يُجدُّ ويجتهد، ثم هو كل عام متفوق فيأتيه ما أسموه اختبار الثانوية الذي بعده ستُحدد وجهته إلىٰ جامعة من الجامعات، ويتوقع له أعالي الدرجات، فإذا به أثناء ذهابه إلىٰ الامتحانات يُصاب بحادث يحول بينه وبين أداء الاختبار فإخوانه هنالك يختبرون، وهو يئن من ألم الجراح في المستشفىٰ التي أُودع فيها، فحينئذٍ إذا أراد الله به خيراً، سيوفقه للرضا بقضاء الله وقدره فيطمئن قلبه ويهدأ باله، ويدرك حقيقة أن الأمور مقدرة.

وكذلك الذي ابتلي بانحراف أحد أبنائه وحيودهم عن طريق الصواب إلىٰ طريق الغواية ، عليه ألا تذهب نفسه حسرات علىٰ ولده فهذا نوع ابتلاء ، وقد قال تعالىٰ: ﴿ **فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾[فاطر: ٨].

وكذا لا يهلك الشخص نفسه تأسفًا وجزعًا علىٰ غواية من غوىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿ **فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ﴾[فاطر: ٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾[الشعراء: ٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾[الكهف: ٦].

*** إن الأم التي ابتليت بفقدان عزيزٍ عليها فأفرطت في الأحزان وبالغت فيها ينبغي أن تذكَّر بالله:**

وأن تعلم ما هو القدر؟!! ولتذكر أن هذا ابتلاءٌ من الله، واختبار لها هل تصبر أم تكن من القانطين الذين حُرموا الأجر والثواب؟

*** ومن فوائدها محو الخطايا، وتكفير السيئات، وحط الذنوب والأوزار**

* أخرج البخاري(١) من حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مصيبة تُصيبُ المسلم إلا كفَّرَ الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها**».

وأخرج(٢) أيضًا عن أبي سعيد الخُدريِّ وعن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ قال: «**ما يُصيبُ المسلم من نَصب ولا وَصَب ولا همٍّ ولا حَزَن ولا أذى ولا غمٍّ - حتى الشَّوكة يُشاكها - إلا كفَّرَ الله بها من خَطاياه**».

وأخرج أيضًا(٣) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَثَل المؤمن كالخامة من الزَّرع: تُفيِّؤُها الريحُ مرَّة، وتَعدلها مرَّة. ومثلُ المنافق كالأرْزَة لا تزالُ حتى يكون انجعافُها مرَّة واحدة**».

ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَل المؤمن كمثَل الخامَة من الزَّرع: من حيث أتتْها الريحُ كفأتها، فإذا اعتدَلت تكفَّأ بالبلاء. والفاجرُ كالأرزةِ صَمَّاءَ مُعتدلةً، حتى يَقصمَها الله إذا شاء**»(٤).

---

(١) البخاري (حديث ٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

(٢) البخاري (حديث ٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٣) البخاري (حديث ٥٦٤٣). (٤) البخاري (حديث ٥٦٤٤).

فالأمراض والابتلاءات إذن علامة خير، قال رسول الله ﷺ: «**من يُرد الله به خيراً يُصبْ منه**» (١).

*وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لَمَّا نزلتْ: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ [النساء: ١٢٣]، بلَغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقَالَ رسولُ الله ﷺ: «**قَاربُوا وسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصابُ بِهِ المُسْلِمُ كفَّارة، حتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا**» (٢).

* وأخرج أيضًا (٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ الله ﷺ دخَلَ علىٰ أُمِّ السَّائب، - أو أُمِّ المُسيَّب - فقال: «**مَا لَكِ يَا أُمَّ السائب - ، أَوْ يَا أُمَّ المُسيَّب - تُزَفْزِفِينَ**» (٤) قالَت: الحُمَّىٰ، لاَ بَارَكَ الله فِيهَا: فقَالَ: «**لا تَسبِّي الحُمَّىٰ؛ فإنَّهَا تُذْهِبُ خطَايَا بَنِي آدَمَ، كمَا يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيد**».

وأخرج مسلم (٥) من طريقه:

عن الأسوَدِ، قالَ: دخَلَ شبَابٌ مِنْ قريشٍ علىٰ عائشَة، وَهِي بِمنًى، وهُمْ يَضْحكُونَ، فقالَتْ: مَا يُضْحككُم؟ قالُوا: فُلاَنٌ خرَّ علىٰ طُنُبِ (٦) فُسْطَاط، فَكَادَتْ عُنُقُهُ أوعَيْنُه أن تَذْهَبَ، فقَالَتْ: لاَ تَضحَكوا: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «**مَا مِن مُسلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فمَا فوْقهَا، إلا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا درَجَة وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ**».

---

(١) البخاري (حديث ٥٦٤٥).

(٢) مسلم (حديث ٢٥٧٤).

(٣) مسلم (حديث ٢٥٧٥).

(٤) تزفزفين: أي ترعدين.

(٥) مسلم (حديث ٢٥٧٢).

(٦) الطنب: هو الحبل الذي يربط به الفسطاط.

أخرج البخاري (١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أنَّ النبيَّ ﷺ دخل على أعرابي يَعودُه، قال: وكان النبيُّ ﷺ إذا دخلَ على مريض يَعوده قال له: «**لا بأسَ، طَهور إن شاء الله**» قال: قلتَ: طهور؟ كلا، بل هي حُمى تفور - أو تثور - على شيخ كبير، تُزِيره القبور، فقال النبيﷺ: «**فنَعَم إذًا**».

* ومن فوائدها رفع الدرجات، وعلو المقامات، ونيل مرتبة الإمامة:

وفي حديث عبد الله بن مسعود(٢) رضي الله عنه قال: «أتيتُ النبيَّ ﷺ في مَرَضِه - وهو يوعَك وَعْكًا شديدًا - وقلت: إنكَ لَتُوعَكُ وعكًا شديدًا قال: «**أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**»، قلت: إنَّ ذاكَ بأنَّ لك أجرين. قـالَ: **أجَلْ، ما من مسلم يُصيبُه أذى إلا حات الله عنه خَطاياهُ كما تَحاتُّ ورَقُ الشجر**».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت أحدًا أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ»(٣).

وأخرج البخاري (٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّ الله قال: إذا ابتَلَيتُ عبدي بحبيبتيهِ فصَبَرعوضْته منهما الجنة**».

أخرج البخاري(٥) من طريق عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن

---

(١) البخاري (حديث ٥٦٥٦).

(٢) البخاري (٥٦٤٧) ومسلم (٢٥٧١).

(٣) البخاري (حديث ٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠).

(٤) البخاري (٥٦٥٣).

(٥) البخاري (حديث ٥٦٥٢)، ومسلم (حديث ٢٥٧٦).

عباس: ألا أُريكَ امرأةً من أهل الجنة؟ قلت: بَلىٰ. قال: هذه المرأة السوداءُ أتت النبيَّ ﷺ فقالت: إني أُصرَعُ وإني أتكشَّفُ، فادعُ الله لي. قال: «**إن شئتِ صَبرت ولك الجنة، وإن شئت دعَوتُ الله أن يُعافيَك**» فقالت: أصبرُ، فقالتَ: إني أتكشف: فادعُ الله لي أن لا أتكشفَ: فدعَا لَها.

وأخرج الإمام أحمد (١) بإسنادٍ صحيح:

عن محمود بن لبيد: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عز وجل ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه؛ كما تحمون مريضكم من الطعام والشراب تخافونه عليه**».

وبهذا الإسناد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عز وجل إذا أحب قومًا ابتلاهم** (٢)**، فمَنْ صبر فله الصبر، ومَن جزع فله الجزع**».

وهذا الخليل إبراهيم عليه السلام يحظى بالإمامة ـ بعد توفيق الله له ـ بامتثاله ما أُمر به وصبره على البلاء:

قال تعالىٰ: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ**﴾[البقرة: ١٢٤] أي: بتكاليف وأوامر ونواهٍ: ﴿**فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ فلما أتمهن قال تعالىٰ: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ [البقرة: ١٢٤].

---

(١) أحمد (٥/ ٤٢٧).

(٢) هذا في قوم يحبهم الله فيبتليهم ويصبرهم بفضله فترفع درجاتهم، وآخرون تحل بهم البلايا لفسقهم، قال الله عز و جل في أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر: ﴿كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وبالجملة: فالنظر إلىٰ حال الرجل وما هو عليه من صلاح، فإن كان قائمًا بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وتحل به البلايا ويصبر فذلك من حب الله عز و جل له، وإن كان معرضًا عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فما يصاب به من بلايا عقوبات علىٰ ما فرط في أمر الله، قال الله عز وجل: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقال عز وجل: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ [النحل: ١١٢].

فهكذا تتأتى الإمامة بالصبر والامتثال .

*** وهؤلاء الأئمة في الدين وقادة الخير نالوا الإمامة ورفعة الدرجة بالصبر على البلاء، مع قوة اليقين:**

قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤].

*ويوسف الصديق اختاره ملك مصر ـ وذلك بإذن الله وتقديره ـ كي يصبح عزيزاً على مصر بعد أن علم عفته وصبره، لما وقفت امرأة العزيز قائلة: ﴿ **الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾[يوسف: ٥١].

وقبلها قالت النسوة: ﴿ **حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ** ﴾ [يوسف: ٥١].

وهذا نبي الله أيوب عليه السلام

لما ابتلي بما ابتلي به فصبر نال شهادة حسنة:

شهادةٌ من ربه وثناءٌ حسنٌ، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾[ص: ٤٤].

وهذا الذي قد ابتلي بحبِّ امرأة فصبر وتعفف واحتسب ما جزاؤه إن صبر على هذا البلاء؟!

لقد دخل بصبره هذا على البلاء في زمرة سبعةٍ كرامٍ أفاضل يظلهم الله

في ظله يوم لا ظل إلا ظله ففي الحديث: «ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»[(١)].

* **ومن فوائد الابتلاءات لمن صبر عليها، أنه يدخل في عداد الصابرين فيحظى بفضائلهم، ويرتقي إلى درجاتهم بحسب صبره وبلائه:** وأما عن فوائد الصبر فقد ذكر قدراً من ذلك ابن جزي في كتابه «التسهيل» فقال:

(فائدة): ورد ذكر الصبر في القرآن في أكثر من سبعين موضعاً: وذلك لعظمة موقعه في الدين، قال بعض العلماء: كل الحسنات لها أجر محصور من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر فإنه لا يحصر أجره، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وذكر الله للصابرين ثمانية أنواع من الكرامة:

أولها: المحبة: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والثاني: النصر قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والثالث: غرفات الجنة قال: ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥].

والرابع: الأجر الجزيل: قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والأربعة الأخرى المذكورة في هذه الآية، ففيها البشارة: قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، والصلاة والرحمة والهداية: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

---

(١) مسلم (حديث ١٠٣١)، والبخاري (حديث ٦٦٠).

قلت: ويضاف إلىٰ ما سبق.

* تسليم الملائكة: عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

* الجزاء بأحسن العمل: كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

ومن فوائد الابتلاءات تذكير العبد بنعم الله عليه:

فلا تكاد تشعر بنعمة البصر إلا إذا اشتكيت عينيك!

ولا تكاد تشعر بنعمة السمع إلا إذا ابتليت في أذنيك.

ولاتكاد تشعر بفضل الله عليك في رجليك إلا إذا كسرت إحدىٰ الرجلين.

ولا تشعر كثيراً بنعمة الولد إلا إذا مرَّ بك زمن وأنت عقيم لا تنجب.

ولا تكاد الحسناء التي تختال بشعرها وتفخر، تشعر بنعمة الله عليها في شعرها الحسن إلا إذ بدأ شعرها يتساقط فحينئذ تسارع وتبادر إلىٰ سؤال ربها أن يلطف بها ويكشف ما حلَّ بها أو كاد أن يحلَّ بها.

ولا يكاد الشخص يستشعر معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨].

أي: وشددنا خلقهم، أي: وقوينا عضلات التحكم فيهم - لا يكاد الشخص يشعر بمعنىٰ ذلك إلا إذا ابتلي بتفلت الريح، أو سيلان الدم، أو سلس البول - أو الرشح المستمر من الأنف، فحينئذ يعلم فضل الله على الخلق إذا قال: ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾.

* ومن فوائد الابتلاء ترقيق القلوب:

ومن ثم الشعور بمصائب الآخرين فإن الله سبحانه وتعالىٰ قد قال في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

ففي قوله تعالىٰ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ﴾ وجهان لأهل العلم:

أحدهما: طال عليهم الأمد في النعيم والعافية، فلما كان ذلك قست القلوب، فلم ترفع الأيدي بسؤال رفع البلاء ولم ترفع الأيدي تسأل ربها السلامة من المرض.

ولم يرق القلب لمصائب الآخرين فصاحبه لا يعرف المصائب فلا يكاد الشخص يشعر بألم من كسرت رجله إلا إذا ذاق الألم أو شيئًا منه.

أما الوجه الآخر: فهو ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ﴾ في البعد عن استماع المواعظ والذكر فنرجع فنقول: إن دوام النعم واستمرار العافية لا يجعل الشخص يفكر، بل قد يتمادىٰ في الغيِّ والطغيان.

أما المبتلىٰ فنراه يئن ويسأل ربه دومًا العافية والشفاء، نرىٰ كثيرًا من المبتلين يبحثون عن أعمال برٍ يتقربون بها إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ لكشف ما بهم من ضرٍّ، كما قال تعالىٰ عن أهل الصلاح من أنبيائه عليهم السلام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ونعود مُذكِّرين بأن المصائب والابتلاءات تذكرنا بأهل الابتلاء، ومن ثمَّ نحنو عليهم ونرحمهم ونعطف عليهم ونحسن إليهم.

* إن من فوائد الابتلاء تذكير العبد بنعم الله عليه:

فتعرف قدر نعمة اليد إذا أصبت فيها بكسر!!

وتعرف قدر نعمة العين إذا أصابها الرمد!!

وتعرف قدر نعمة الأسنان إذا اشتكيت ضرسك!!

وهكذا لا تدرك معنى قوله تعالى: ﴿ **نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ** ﴾ [الإنسان: ٢٨].

أي: قوينا عضلاتهم وأجزاء التحكم فيهم - لا تكاد تدرك ذلك إلا إذا سمعت عن شخص به سلسُ بول أو امرأة مستحاضة دمها ينزف ولا ينقطع، أو من هو مصاب بانفلات ريح، أو بإسهالٍ مستمر لا ينقطع، أو بمن لازمه القيء.

* ومن فوائد الابتلاء الشعور بالضعف والعجز بين يدي الله عزَّ وجل وكذا دفع الغرور والكبر.

فقد يبتلى رجل بحب امرأة، بل وبعشقها ويعرف تمام المعرفة أن الطريق الذي يسير فيه معها طريق خاطئ ولكنه يقاوم فيخطئ، ويقاوم فيخطئ، ولا أعني أنه يخطئ بفعل الفاحشة، ولكن يفعل ما لا يليق بأهل الصلاح عموماً، ويستمر فيما هو فيه، ويقاوم فلا يُفلح فلا يجد مناصاً ولا مفراً، إن كان من أهل الإيمان، إلا سؤال الله عزَّ وجل أن يصرف عنه السوء والفحشاء، وأن يحول قلبه عن هذا الابتلاء. فيقرُّ بضعفه بين يدي خالقه ومولاه، ويعرف دوماً أن لا حول ولا قوة إلا بالله فالمحُول عن المعصية من حوله الله، والمصروف عن السوء من صرفه الله، والمحفوظ من حفظه الله، وهذه المرأة الصالحة الحافظة لفرجها، والحافظة لغيب زوجها حفظها لنفسها إنما هو بعون الله، فمن ثمَّ فلا شماتة بأهل الابتلاء ولا أمن من مكر الله.

* وانظر إلى هذه المعاني الجميلة الجليلة كيف تتجلى.

انظر إلى نوح عليه السلام، وهو ينادي ولده الكافر، والأمواج تتلاطم، فالأرض قد فجرت عيونًا، والسماء قد فتحت أبوابها بماءٍ منهمر، فالتقى ماء الأرض وماء السماء على أمر قد قُدر، أما نوح عليه السلام، ومن معه من أهل الإيمان فقد ركبوا السفينة، لقد حُملوا على ذات ألواح ودُسر ففي هذا الخضم من الطوفان العظيم الذي يعتري الكون!!

من الأرض التي تفجرت عيونًا!! والسماء التي فتحت أبوابها بالماء المنهمر، يرى نوح عليه السلام ولده فيقول مناديًا: ﴿**يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**﴾ [هود: ٤٢]، لكن الغويُّ يقول: ﴿**سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾[هود: ٤٣].

فهكذا يموت الولد على الكفر أمام عين أبيه ولله الأمر من قبل ومن بعد!!

تأخذ نوحًا عليه السلام الشفقة فيقول: ﴿**رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ**﴾ [هود: ٤٥] فيقول تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾[هود: ٤٦].

هكذا يعاتب نوح عليه السلام، وهكذا يُوجه.

فماذا يقول هذا النبي؟! انظر إلى قوله فإنه ينم عن خيرٍ عظيم!!

إنه يقول: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**﴾ [هود: ٤٥].

أي : يا رب ألجأ إليك ، أستنجدُ بك ، أستجير بك يا رب كي تجيرني وتحفظني من سؤال ما ليس لي به علم .

فكأنه يقول لا طاقة لي يا رب ولا قدرة إلا إذا أعنتني وقويتني ، فهكذا أهل الصلاح يفعلون .

وهذا الصديق يوسف عليه السلام يقول : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[يوسف : ٣٣] .

فالشخص منا ضعيف لا يستطيع حفظ نفسه إلا إذا حفظه الله وانظر إلى قول سيد ولد آدم عليه السلام ، إنه رسولنا محمد ﷺ يقول : «أعوذ بك أن تضلني» .

فهكذا يستجير نبينا ﷺ بربه حتى يحفظه من الضلال .

وهكذا أهل الإيمان يقولون : ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾

[آل عمران : ٨]

فالمصائب والابتلاءات ـ عياذاً بالله من المصائب والابتلاءات ـ إذا حلَّت بشخص قد يستفيد منها هذه المعاني الجميلة الطيبة الجليلة فيعرف ربه ويعرف قدر نفسه .

* ومن فوائدها إظهار المُحب من المُبغض:

فإذا حلَّت المصيبة وجدت رجالاً من أهل الفضل والصلاح يلتفون من حولك ويريدون بكل سبيل يستطيعونه أن يُنقذوك مما أنت فيه ويجدون لك مخرجًا ، وتجد قلوبهم ترق لك رقة شديدة ، بل وأعينهم تدمع ، ويتمنون خلاصك مما حلَّ بك عاجلاً غير آجل .

ترى هذا يعرض خدماته ، وهذا يبدي استعداداته وهذا يرسل ولده ،

وهذا يستشفع بصديقه وهذا يُذكر بمن له يدٌ ـ بعد الله ـ في كشف الغمة بإذن الله ! الكل يسعىٰ ، الكل يُجد ، الكلُّ يجتهد الكل يدعو الله بكشف الكرب والبلاء .

وفي الوقت ذاته تجد الشامت الذي جاء يعزيك ، والفرح والسرور باديان علىٰ وجهه .

تجد الشانئ البغيض يظهر سروره في المجالس بما حدث لك ويبدي عما حمله قلبه الخبيث ، قلب الذئب في جثمان إنس من كراهية وحب شيوع للفاحشة في الذين آمنوا تجده أصبح كلبًا ينهش في الأعراض ويملأ جوفه بالجيف والنتن بالاغتياب والافتراء والبهتان وقد كنت ترىٰ هذا الشخص من قبل حنونًا في الظاهر عليك مشفقًا يلتف حولك وقت العافية والرخاء ، ولكن لما لم تعد له معك فائدة طفق يطعن ويظهر فجوره ويجاهر بشماتته .

فهكذا دومًا المصائب تُفرز أهل فضل وصلاح تنفعك بعد المصيبة صحبتهم ، وتُفرز آخرين يجب بعد ذلك أن تكون منهم علىٰ حذر .

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال : ٣٧] .

فمن ثمَّ تُعيد النظر في الصداقات والأصحاب ، والمقربين والخلان فتُقرب من يستحق التقريب منك ، وتقترب إليه كذلك وتقدم له شكرًا علىٰ ما قدم وأنصح وأسدىٰ من الجميل والمعروف والإحسان ! !

وتباعد من يستحق الإبعاد ، ومنه تفرُّ ، وعنه تبتعد ! وتُقيل عثرة من زلت قدمه وخاض مع الخائضين .

فَكَمْ أفرز حادث الإفك من صديق حبيب حميم محب مشفق رحيم :

يحسن الظن بأهل الإيمان ويرجو الله رفع البلاء وكم أفرز من منافق كابن سلول وأمثاله من الذين سعوا في الأرض بالفساد .

وكم أظهرت غزوة أحد من مؤمنٍ يرجو الله ويرغب في ثوابه ونيل الشهادة في سبيله!

وكم ظهر أيضًا من منافق يولي الأدبار ويقول: ﴿**لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا**﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وكم ظهرت أيضًا من بطولات أبطال وجهاد مجاهدين كأنس بن النضر رضي الله عنه.

أخرج البخاري ومسلم(١) من حديث أنس رضي الله عنه قال: «غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله: غِبْتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئن الله أَشْهدني قتالَ المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أُحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أَعْتَذِرُ إليك مما صنع هؤلاء يعني أصْحابه، وأَبرأُ إليك مما صَنَعَ هؤلاء يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعدُ بن معاذ الجنَّةَ ورب النَّضر إني أجدُ ريحها من دُون أُحُد قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضَرْبةً بالسيف أو طعنةً بِرُمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتِل وقد مَثَّلَ به المشركون فما عرفه أحدٌ إلا أخته بِبَنَانِه، قال أنس: كنا نرىٰ - أو نظن - أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ إلىٰ آخر الآية [الأحزاب: ٢٣].

وقال: «إن أخته - وهي تسمىٰ الرُّبَيِّع - كسرت ثنية امرأة فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص فقال أَنَسٌ: يا رسول الله، والذي بَعَثَكَ بالحق لا تُكْسر ثنيتها فَرَضَوا بالإِرْش وتركوا القصاص فقال: رسول الله ﷺ: «**إن من عِبادِ الله من لو أقْسَمَ على الله لأَبَرَّهُ**».

---

(١) البخاري (حديث ٢٨٠٥)، وانظر مسلم (١٦٧٥).

وكم أظهرت غزوة الأحزاب من منافقٍ يقول: ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا ﴾[الأحزاب: ١٢]

وكم أظهرت من طائفة تقول: ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾[الأحزاب: ١٣].

وكم أظهرت من مستأذن يريد الفرار، قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣].

وها هو كعب بن مالك رضي الله عنه يحفظ لطلحة معروفه وصنيعه الحسن: إذ قام إليه يهرول حتى صافحه وهنأه لما تاب الله عليه يقول كعب فما نسيتها لطلحة بن عبيد الله [١].

ومن فوائدها فهم نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية المباركة ومن ثمَّ لذة الذِّكر والمناجاة والتضرع والاستغفار:

فلا تكاد تشعر بمعاني كلمة: ﴿ لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٧].

إلا إذا وقعت في مصيبة بسبب ذنوبك ولا تكاد تشعر بمعنى كلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) إلا إذا وجدت نفسك مندفعًا صوب شيء لا تستطيع صرف نفسك عنه، وكذا إذا رأيت نفسك تقوم بعمل لا تطيقه، فترى حينئذٍ لقول (لا حول ولا قوة إلا بالله) مدلولها الطيب، وأثرها النافع، ووقعها في القلوب، ولا تكاد تدرك وتفهم معنى (حسبي الله ونعم الوكيل) إلا إذا خوَّفك قومٌ، ووقعت في أمرٍ مزعج.

---

(١) انظر البخاري (حديث ٤٤١٨)، ومسلم (حديث ٢٧٦٩).

وغزوة أحد رغم ما حملته من آلام وأدخلته من أحزانٍ على المسلمين، من قتل وجراح وآلام :

نفسيه، وشج رأس النبي ﷺ وكسر رباعيته، وقتل عمه حمزة، وبقر بطنه، واستخراج الكبد حتىٰ تلوكها امرأة بأسنانها ، ثم تطاول أهل الباطل وجرأتهم علىٰ المسلمين، وقول قائلهم : (أُعل هبل)، وقوله : (لنا العزىٰ ولا عزىٰ لكم) رغم هذا كله، إلا أن الغبار ينقشع والبلاء يزول ويرتفع، وتبقىٰ المنافع والفوائد التي يستفيدها أهل الإيمان في زمن خير القرون، ومن جاء بعدهم علىٰ الدوام من عموم أهل الإسلام الذين يتلون كتاب الله، ويتدبرونه ويستخرجون ما فيه من الحكم ويستنبطون ما فيه من العبر.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

فصل في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد

وقد أشار الله - سبحانه وتعالى - إلى أمهاتها وأصولها في سورة (آل عمران) حيث افتتح القصة بقوله: ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ** ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفُهم سوءَ عاقبة المعصية، والفشَل، والتنازُعِ، وأن الذي أصابَهم إنما هو بشُؤمِ ذلكَ، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلما ذاقُوا عاقبةَ معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانُوا بعد ذلك أشدَّ حذرًا ويقظة، وتحرُّزًا من أسبابِ الخِذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنَّته في رُسله، وأتباعِهم، جرت بأن يُدالوا مرَّةً، ويُدالَ عليهم أخرى، لكن تكونُ لهم العاقبةُ، فإنهم لو انتصرُوا دائمًا، دخلَ معهم المؤمنون وغيرُهم، ولم يتميَّز الصَّادِقُ مِن غيره، ولو انتصِرَ عليهم دائمًا، لم يحصل المقصودُ من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بينَ الأمرين ليتميز من يتبعُهم ويُطيعهُم للحق، وما جاءوا به ممن يتبعُهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا مِن أعلام الرسل، كما قال هِرَقْلُ لأبي سفيان: هل

قَاتَلْتُمُوهُ؟ قال: نعم. قال: كَيْفَ الحَرْبُ بَيْنَكُم وبيْنَه؟ قالَ: سجَال، يُدالُ علينا المرة، ونُدالُ عليه الأخرىٰ. قال: كَذلِكَ الرُّسُل تُبْتَلَىٰ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَة [(١)].

ومنهـا: أن يتميَّز المؤمنُ الصادِقُ مِن المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله علىٰ أعدائهم يومَ بدر، وطار لهم الصِّيتُ، دخل معهم في الإسلام ظاهراً مَنْ ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حكمةُ الله عز وجل أن سَبَّبَ لعباده مِحنَةً ميَّزت بين المؤمن والمنافق، فأَطْلَعَ المنافقون رُؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلَّموا بما كانوا يكتُمونه، وظهرت مُخَابئتُهم، وعاد تلويحُهم تصريحًا، وانقسم الناسُ إلىٰ كافر ومؤمن ومنافق انقسامًا ظاهرًا، وعَرَفَ المؤمنون أن لهم عدوًّا في نفس دُورهم، وهم معهم لا يُفارقونهم، فاستعدُّوا لهم، وتحرَّزوا منهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، أي: ما كان اللهُ ليذركم علىٰ ما أنتم عليه من التباسِ المؤمنين بالمنافقين، حتىٰ يميزَ أهلَ الإيمان من أهل النفاق، كما ميَّزهم بالمحنة يومَ أحد، وما كان الله ليطلعكم علىٰ الغيب الذي يَمِيزُ به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميِّزون في غيبه وعلمه.

وهو سبحانه يُريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومهُ الذي هو غيبٌ شهادةً، وقوله: ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه علىٰ الغيب، سوىٰ الرسل، فإنه يُطلعهم علىٰ ما يشاء مِن غيبه، كما قال: ﴿ **عَالِمُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٧٩، ١/ ٣٠، ٤١) من حديث أبي سفيان.

الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، فحظكم أنتم وسعادتُكم في الإيمان بالغيب الذي يُطْلِعُ عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم، فلكم أعظمُ الأجر والكرامة.

ومنها: استخراجُ عبوديةِ أوليائه وحزبِه في السَّراء والضَّراء، وفيما يُحبُّون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتُوا على الطاعة والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون، فهم عبيدُه حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السَّراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوهم في كُلِّ موطن، وجعل لهم التَّمْكينَ والقهرَ لأعدائهم أبدًا، لطغتْ نفوسُهم وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصرَ والظفرَ، لكانُوا في الحال التي يكونون فيها لو بَسَطَ لهم الرِّزْقَ، فلا يُصْلِحُ عباده إلا السَّراءُ والضَّراءُ، والشدةُ والرخاءُ، والقبضُ والبسطُ، فهو المدبِّرُ لأمر عباده كما يليقُ بحكمته، إنه خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلَبة، والكَسْرَة، والهزيمة، ذلُّوا وانكسروا، وخضعُوا، فاستوجبوا منه العزَّ والنَّصْرَ، فإن خلعة النصر إنما تكونُ مع ولاية الذُّلِّ والانكسارِ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقال: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة: ٢٥]، فهو ـ سبحانه ـ إذا أراد أن يُعز عبدَه. ويجبُرَه، وينصره، كسره أوَّلاً، ويكونُ جبرُه له ونصره على مقدار ذُلِّه وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيَّأ لعباده المؤمنين منازلَ في دار كرامته، لم تبلُغْها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنةِ، فقيَّض لهم الأسبابَ، التي تُوصِلُهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوسَ تكتسِبُ من العافية الدائمة والنصر والغنىٰ طغيانًا ورُكونًا إلىٰ العاجلة، وذلك مرض يَعُوقُها عن جِدها في سيرها إلىٰ الله والدارِ الآخرة، فإذا أراد بها ربُّهَا ومالِكُها وراحِمُها كرامته، قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليلَ الدواءَ الكريه، ويقطع منه العروقَ المؤلمةَ لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه، لغَلَبَتْهُ الأدواءُ حتىٰ يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلىٰ مراتب أوليائه والشهداء هم خواصه والمقرَّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّدِّيقيَّة إلا الشهادةُ، وهو سبحانه يُحب أن يتخذَ من عباده شهداءَ، تُراقُ دماؤهم في محبته، ومرضاته، ويُؤْثِرونَ رضاه ومحابَّه علىٰ نفوسهم، ولا سبيلَ إلىٰ نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يُهلِكَ أعداءه ويمحقَهم، قيَّض لهم الأسبابَ التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقَهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانُهم، ومبالغتُهم في أذىٰ أوليائه، ومحاربتُهم وقتالُهم، والتسلطُ عليهم، فيتمحَّصُ بذلك أولياؤُه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، قد ذكر سبحانه وتعالىٰ ذلك في قوله: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١].

فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء

عزائمهم وهِممهم، وبينَ حُسنِ التسلية، وذكر الحِكمِ الباهِرَة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فقد استويتُم في القرحِ والألَمِ، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾[النساء: ١٠٤]، فما بالكم تَهِنُونَ وتضعُفُون عند القرحِ والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيلِ الشيطان، وأنتم أصِبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبرَ أنه يُداوِلُ أيامَ هذه الحياة الدنيا بين الناسِ، وأنها عَرَضٌ حاضِر، يقسمها دُوَلًا بين أوليائه وأعدائِهِ بخلاف الآخِرةِ، فإن عزَّها ونصرَها ورجاءَها خالصٌ للذين آمنُوا.

ثم ذكر حِكمة أخرىٰ، وهي أن يتميَّزَ المؤمنون من المنافقين، فيعلمُهم عِلْمَ رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومِين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتَّب عليه ثوابٌ ولا عقاب، وإنَّما يترتب الثواب والعقاب علىٰ المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحسِ.

ثم ذكر حكمة أخرىٰ، وهي اتخاذُه سبحانه منهم شهداء، فإنه يُحبُّ الشهداء من عباده، وقد أعدَّ لهم أعلىٰ المنازل وأفضلَها، وقد اتخذهم لنفسه، فلابدَّ أن يُنيلَهم درجة الشهادة. وقوله: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، تنبيه لطيف الموقعُ جدًا علىٰ كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخَذَلُوا عن نبيه يومَ أحد، فلم يشهدوه، ولم يَتَّخِذْ منهم شهداء، لأنه لم يُحبهم، فأركَسَهم وردَّهُم لِيَحْرِمَهُم ما خص به المؤمنين في ذلكَ اليوم، وما أعطاهُ من استُشهِدَ منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحِزبه.

ثم ذكر حِكمة أخرىٰ فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتُهم وتخليصُهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضًا فإنه خلَّصهم من المنافقين، فتَمَيَّزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يُظهِرُ أنه منهم، وهو عدوُّهم.

ثم ذكر حكمة أخرىٰ، وهي محقُ الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعُدوانهم، ثم أنكر عليهم حُسبانَهم، وظنَّهُم أن يدخلُوا الجنَّة بدون الجهاد في سبيله، والصبرِ علىٰ أذىٰ أعدائه، وأن هذا ممتنع بحيثُ يُنْكَرُ علىٰ من ظنه وحَسِبَه. فقال: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٢].

أي: ولما يَقعْ ذلكَ منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع، لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء علىٰ الواقع المعلوم، لا علىٰ مجرد العلم، فإن الله لا يجزي العبد علىٰ مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومُه، ثم وبَّخهم علىٰ هزيمتهم مِن أمر كانوا يتمنَّونه ويودُّون لقاءه. فقال: ﴿**وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٤٣].

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالىٰ علىٰ لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالا يستشهدُونَ فيه، فيلحقُونَ إخوانَهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد، وسبّبه لهم، فلم يَلْبَثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٤٣].

ومنها: أن وقعةَ أحدٍ كانت مُقدِّمةً وإرهاصًا بين يدي موتِ رسولِ الله ﷺ، فثبَّتهم، ووبَّخهم علىٰ انقلابهم علىٰ أعقابهم إن مات رسولُ الله ﷺ، أو قُتِلَ بل الواجبُ له عليهم أن يثبتُوا علىٰ دِينه وتوحِيدِه ويموتوا عليه، أو يُقتلُوا،

فإنهم إنما يعبدُون ربَّ محمدٍ، وهو حيٌّ لا يموت، فلو ماتَ محمد أو قتلَ، لا ينبغي لهم أن يصرفَهم ذلك عن دينه، وما جاء به فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، وما بُعِثَ محمد ﷺ ليخلَّد لا هُوَ ولا هُم، بل لِيمُوتُوا على الإسلامِ والتَّوحيدِ، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء ماتَ رسول الله ﷺ أو بَقِيَ، ولهذا وبَّخَهُم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيْطَانُ: إنَّ محمداً قد قُتِلَ، فقال: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليه حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثرُ هذا العِتَابِ، وحكمُ هذا الخطاب يوم ماتَ رسول الله ﷺ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشاكِرُون على دينهم، فنصرهم الله وأعزَّهم وظفَّرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم، ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحق به، فيَرِدُ الناس كُلُّهم حوضَ المنايا مَوْرِدًا واحداً، وإن تنوَّعت أسبابه، ويصدُرونَ عن موقف القِيامة مصادِرَ شتَّى، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير، ثم أخبر سبحانه أن جماعةً كثيرةً من أنبيائه قُتِلُوا وقُتِلَ معهم أتباعٌ لهم كثيرون، فما وَهَنَ مَنْ بَقِيَ منهم لِما أصابهم في سبيله، وما ضَعُفُوا وما استكانوا، وما وهنوا عند القتل، ولا ضعفوا، ولا استكانوا، بل تَلَقَّوا الشهادةَ بالقُوَّةِ، والعزيمةِ، والإقْدَامِ، فلم يُسْتَشْهَدُوا مُدْبِرِينَ مستكينين أذلةً، بل استُشْهِدُوا أعزَّةً كِرامًا مقبلين غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر سُبحانه عما استنصرت به الأنبياءُ وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم، أن يُثَبِّت أقدامهم، وأن

ينصرُهم على أعدائهم، فقال: ﴿ **وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٧، ١٤٨]، لما علم القومُ أن العدو إنما يُدالُ عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزِلُّهم ويهزِمُهم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ في حق أو تجاوزٌ لحد، وأن النصرةَ منوطة بالطاعة، قالوا: ربنا اغفرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرنا، ثم عَلِمُوا أن ربَّهم تبارك وتعالى إن لم يُثبِّتْ أقدامَهم ويَنْصُرْهم، لم يَقْدِرُوا هُم على تثبيتِ أقدامِ أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألُوه ما يعلمون أنَّهُ بيده دُونهم، وأنه إن لم يُثبِّتْ أقدامَهم وينصرهم لم يثبتُوا ولم ينتصرُوا، فَوَفُّوا المقَامَيْنِ حقَّهما، مقامَ المقتضى، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه. ومقام إزالةِ المانع من النصرة، وهو الذنوبُ والإسرافُ، ثم حذَّرهم سبحانه من طاعة عدوِّهم، وأخبر أنَّهم إن أطاعوهم خَسِرُوا الدنيا والآخِرَة وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقينَ الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يومَ أحد.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيُلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهُجُومِ عليهم، والإقدام على حربهم، وأنه يؤيِّد حزبَه بجند مِن الرعب ينتصرونَ به على أعدائهم، وذلك الرعبُ بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله، وعلى قدرِ الشرك يكون الرعبُ، فالمشركُ بالله أشدُّ شيءٍ خوفًا ورُعبًا، والذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بالشِّرْكِ لهم الأمنُ والهُدى والفلاحُ، والمشركُ له الخوفُ والضلالُ والشقاءُ.

ثم أخبرهم أنه صدَقَهُم وعدَه في نُصرتهم علىٰ عدوهم، وهو الصادقُ الوعد، وأنهم لو استمرُّوا علىٰ الطاعةِ، ولزومِ أمر الرسول لاستمرَّت نُصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقُوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصرَةُ، فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاءً، وتعريفًا لهم بسوء عواقِبِ المعصية، وحُسنِ عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عفَا عنهم بعد ذلكَ كُلِّه، وأنه ذو فضلٍ علىٰ عباده المؤمنين قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلَّط عليهم أعداءَهم حتىٰ قتلُوا منهم من قتلوا، ومثَّلُوا بهم، ونالُوا منهم مَا نالوه؟ فقال: لولا عفوُه عنهم، لاستأصلَهم، ولكن بعفوه عنهم دفَع عنهم عدوَّهم بعد أن كانوا مُجمعين علىٰ استئصالهم.

ثمَّ ذكَّرهم بحالهم وقتَ الفرارِ مُصعدينَ، أي: جادِّين في الهربِ والذهاب في الأرضِ، أو صاعدين في الجبلِ لا يلوونَ علىٰ أحد من نبيهم ولا أصحابهم والرسولُ يدعوهم في أخراهم: إليَّ عبادَ الله، أنَا رسولُ الله، فأثابهم بهذا الهرب والفرارِ، غمًّا بعدَ غمٍّ، غمَّ الهزيمة والكسرةِ، وغمَّ صرخةِ الشيطان فيهم بأن محمداً قد قتل.

وقيل: جازاكم غمًّا بما غممتُم رسولَه بفراركم عنه، وأسلمتمُوه إلىٰ عدوه، فالغمُّ الذي حصل لكم جزاءً علىٰ الغمِّ الذي أوقعتموه بنبيه، والقولُ الأولُ أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾

[آل عمران: ١٥٣].

تنبيهٌ علىٰ حِكمة هذا الغم بعدَ الغمِّ، وهو أن يُنسيَهم الحزن علىٰ ما فاتهم مِن الظفر، وعلىٰ ما أصابهم مِن الهزيمةِ والجراحِ، فنسُوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصُل بالغمِّ الذي يعقُبُه غم آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنَّه حَصَلَ لهم غمُّ فواتِ الغنيمة، ثم أعقبه غمُّ الهزيمةِ، ثم غمُّ الجراح التي أصابتهم، ثم غمُّ القتلِ، ثم غمُّ سماعِهم أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد قُتِلَ، ثم غمُّ ظهور أعدائهم علىٰ الجبل فوقهم، وليس المراد غمَّين اثنين خاصة، بل غمًّا متتابعًا لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: «بغم»، من تمام الثوابِ، لا أنه سببُ جزاء الثواب، والمعنىٰ: أثابكم غمًّا متَّصِلاً بغم، جزاءً علىٰ ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر، وفشلهم، وكلُّ واحد من هذه الأمور يُوجب غمًّا يخصُّه، فترادفت عليهم الغموم كما ترادفت منهم أسبابُها وموجباتُها، ولولا أن تداركهم بعفوِه، لكان أمرًا آخرَ.

وَمِن لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصرة المستقرة، فقيَّض لهم بلطفه أسبابًا أخرجها من القوة إلىٰ الفعل، فترتَّب عليها آثارُها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبةَ منها والاحترازَ مِن أمثالها ودفعها بأضدادها أمرٌ متعيَّنٌ، لا يتم لهم الفلاحُ والنصرةُ الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشدَّ حذرًا بعدها، ومعرفة بالأبوابِ التي دخل عليهم منها.

ورُبَّمَا صَحَّتِ الأجسَامُ بالعَلَلِ.

وحديث الإفك: رغم ما كان فيه من الألم، وما حمله هذا الحدث من أحزان دخلت علىٰ بيت النبوة الطاهر الكريم، بل وعلىٰ عموم المسلمين إلا أن الله سبحانه كشف الغمة ورفع الكرب وأزاح البلاء في آيات تتلىٰ، وفيها: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١].

نعم هو خيرٌ لنا ولعموم المسلمين: فقد برأ الله سبحانه وتعالىٰ ساحة بيت النبوة الطاهر الكريم، وأظهرت براءة الصديقة بنت الصديق في آيات تتلىٰ في المحاريب وتحفظ في الصدور وترتل في الصلوات ويتعلمها الأطفال في المدارس والمجامع والكتاتيب.

وفضلاً عن ذلك كله ففيه تأديب للمؤمنين إذا أُلمتْ بهم المُلمات، وحلَّت بهم البليات، وانتشرت في أوساطهم الشائعات.

أدبٌ لهم كيف يصنعون في مثل هذه الأحوال؟!

وكيف يواجهون تلك الأحداث؟! فمن ذلك:

أولاً: علىٰ المؤمن أن يظن الخير بإخوانه المؤمنين وأخواته المؤمنات فإذا نقل له عن أخيه المؤمن أو عن أخته المؤمنة خبرٌ يشين ويُحزن وخبرٌ يحمل طعنًا في أعراض إخوانه المؤمنين والمؤمنات، فعليه حينئذٍ أن يُكذِّب هذا الخبر الذي يحمل طعونًا في المؤمنين والمؤمنات وفي أعراضهم ويقول بملء فيه عن هذا الخبر الذي لم تصاحبه البينات: هذا إفك مبين، هذا كذب واضح وظاهر، وذلك تبرئة لساحة إخوانه المؤمنين وأخواته المؤمنات وحماية لأعراضهم وصونًا لكرامتهم، وإلىٰ هذا الأدب أرشدنا ربنا سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾ [النور: ١٢].

وقد ورد عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنهم تصرفوا مثل هذا التصرف من الظن الحسن بإخوانهم المؤمنين والمؤمنات.

فقد أخرج الطبري وغيره من طريق محمد بن إسحاق عن أبيه عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: «أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلىٰ، وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟! قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير

منك، قال: فلما نزل القرآن ذكر الله من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ**﴾ [النور: ١١]، وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا ثم قال: ﴿**لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ...**﴾ [النور: ١٢]، أي: كما قال أبو أيوب وصاحبته[١].

ثانيًا: علىٰ أهل الإيمان أن يتثبتوا في أمورهم بالبينات والدليل والبرهان فلا يترك أهل الكذب والافتراء يخوضون في أعراض المؤمنين والمؤمنات وينتهكونها، بل يطلب من هؤلاء البينات والدلائل والبراهين علىٰ صدق مدعاهم، فإذا أتوا بالبينات والدلائل والبراهين أخذ بها وأقيم الحد علىٰ مستحقه، وإذا لم يأت هؤلاء الظلمة بالبينات فحينئذٍ يحكم عليهم بما يستحقونه شرعًا ودينًا من إقامة حدود الله عليهم ووصفهم بالكذب والفسق.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿**لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾ [النور: ١٣].

فقد تقوىٰ الظنون وتكثر الوساوس والهواجس لكثرة كلام الناس وليس هناك بينات، فإذا تدافعت عليك الظنون وكثرت عليك الوساوس فعليك حينئذٍ أن تطالب بالبينات الظاهرة، ألا وهي الشهود هاهنا، فإذا لم يأت القَذَفَةُ بالشهود فأولئك عند الله هم الكاذبون.

ثالثًا: علىٰ المؤمن أن ينظر في حجم الكلام وفي أبعاده، وبمن يتعلق هذا الكلام وذاك الحديث، فليس كل الكلام يتكلم به، وليس كل حديث يُخاض فيه وعرض المسلم ليس كعرض الكافر، والمؤمن الصالح أعظم حرمة من الفاسق الكذاب.

---

(١) ابن جرير الطبري في «التفسير» (١٨/ ٧٧)، وفيه إبهام رجال بني النجار ولا أدري أهم صحابة أم لا؟

فإذا اتُّهم رجل من أهل الفضل والصلاح وطُعن في عرضه فاتهامه والطعن في عرضه أعظم جرمًا بلا شك من الطعن في عرض غيره .

فلا تسمح لشخصٍ يطعن في أهل الصلاح أمامك ، لا تسمح لشخص بالخوض في أعراضهم وأنت ساكت ، بل ذب عن أخيك المسلم وعن عرضه وعن حماه! والزم الأدب ولا تخض مع الخائضين ولا تهلك مع الهالكين ، قال الله سبحانه : ﴿ **وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** ﴾ [النور: ١٦] .

وصدقت يا رب فيما قلت ، فحقًّا ، ليس لأهل الإيمان أن يخوضوا في مثل هذه القاذورات ولا في مثل هذه الطعون ولا في تلك البذاءات .

ليس لأهل الإيمان أن يتناولوا الأعراض ، وأعراض من ؟! أعراض بيت النبوة ، أشرف بيت على وجه الأرض!!

فابتداءً ، ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش ولا بالبذيء .

فهل يليق بالمؤمن أن يطعن في بيت نبيه ﷺ ، وهل يليق به أن يتوارد على ذهنه أو على قلبه سوءٌ في شأن بيت نبيه ﷺ وبيت أزواجه اللواتي هن أمهات المؤمنين؟!!

فحقًّا ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك ، هذا بهتان عظيم!!

وفيه من الفوائد:

التحذير من اتباع خطوات الشيطان ، وذلك لكونه يأمر بالفحشاء والمنكر .

وأن الشائعات قد تنتشر حتى في أوساط أهل الفضل والصلاح من المسلمين فعلى المسلم أن يتريث ، وعليه أن يتثبت في الأمور ، ويتأنى في قبول الأخبار ، ويسأل عن القرائن والبينات ، وقد قال تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا** ﴾ [الحجرات: ٦] ، وقال

تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فقد تتفشى الشائعات وتنتشر وتضر بأهل الفضل والصلاح، بل وبعموم المؤمنين والمؤمنات وليس لها أساس من الصحة.

وها هي حالات انتشرت فيها الشائعات حتى في أوساط أهل الفضل والصلاح في أوساط خير القرون، وخير أمة أخرجت للناس.

انتشر في أوساطهم حديث الإفك وتحدث به قوم من الصحابة متبعين سبيل أهل النفاق في هذا الباب.

انتشر في أوساطهم أيضًا أن النبي ﷺ طلّق أزواجه ولم يكن طلقهن، وذلك لما غاضب النبي ﷺ أزواجه واعتزلهن كما قد ورد في «صحيح البخاري»[(١)] من حديث عمر رضي الله عنه.

انتشر في أوساط أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ يريد أن يتزوج بزينب ابنة أم سلمة ولم يكن لهذا الخبر أساس ولا مسحة من الصحة.

ففي «صحيح البخاري»[(٢)] من حديث أم حبيبة قالت: قلت: يا رسول الله، أنكح أختي بنت أبي سفيان، قال: «**وتحبين**»، فقلت: نعم، لستُ لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبي ﷺ: «**إن ذلك لا يحل لي**»، قلت: يا رسول الله، فوالله إنا لنتحدث أنك تريد أن تنكح دُرَّة بنت أبي سلمة، قال: «**بنت أم سلمة**» فقلت: نعم، قال: «**فوالله لو لم تكن في حجري ما حلت لي إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن**».

---

(١) البخاري (حديث ٥١٩١).

(٢) البخاري (حديث ٥١٠٧).

وها هي حالة أخرى:

وفي «صحيح مسلم»[١] من حديث أنس رضي الله عنه: أن رجلاً كان يتهم بأم ولد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اذهب فاضرب عنقه» فأتاه علي فإذا هو في ركي[٢] يتبرد فيها، فقال له علي: اخرج، فناوله يده فأخرجه، فإذا هو مجبوب ليس له ذكر، فكف علي عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه لمجبوب، ما له ذكر.

وفضلاً عما ذكر ففيه من الفوائد أن المؤمن عليه أن يجتهد لإصلاح نفسه، ويسأل ربه أن يصلح له قلبه ويقذف فيه حب الخير للمؤمنين، وينجيه من حب شيوع الفاحشة فيهم، فإذا وجد المرء في قلبه حبًّا لشيوع الفاحشة في الذين آمنوا فعليه أن يستغفر الله ويتوب إليه ويسأل ربه السلامة والعافية فالله يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النور: ١٩].

وفيه من الفوائد الحث على إقالة ذوي الهيئات عثراتهم:

إذ قد حث ربنا سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور: ٢٢].

فقد نزلت الآية الكريمة في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إذ قد كان ينفق على مسطح بن أثاثة رضي الله عنه لفقره ولقرابته منه، ثم هو بدري شهد بدراً مع رسول الله ﷺ، ولكنه خاض - رضي الله عنه - وعفى الله عنه

---

(١) مسلم ص (٢١٣٩) (حديث ٢٧٧١).

(٢) الركي هو البئر.

في حديث الإفك مع من خاضوا، وطعن في عائشة رضي الله عنها بلا بينة ولا تثبت ولا دليل، فلما كان منه ذلك، وأظهر الله براءة عائشة - رضي الله عنها - قال أبو بكر رضي الله عنه: والله لا أُنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ**﴾ [النور: ٢٢]، إلىٰ قوله: ﴿**أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلىٰ مسطح النفقة التي كان يُنفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبداً[1].

ومن فوائد ذلك، إظهار براءة أمنا الكريمة عائشة رضي الله عنها براءة تامة: نزل بها الروح الأمين من عند الله عزَّ وجل، براءةٌ تُطمئن كلَّ مظلوم، وكلَّ متهم بريء بأن الله سينجيه إما في الحياة الدنيا، ويقيناً يوم يقوم الأشهاد، براءةٌ تطمئن أهل الإسلام، وأهل الإيمان وهم يستمعون إلىٰ أحاديث عائشة رضي الله عنها التي ترويها عن رسول الله ﷺ، فيقبلون ذلك كله بقبول حسن ويثنون عليه ثناءً حسنًا لما نفع الله بها من علمٍ غزير بثَّته لأمة محمد ﷺ.

وقد أورد العلامة ابن القيم رحمه الله جملة من الفوائد المتعلقة بحديث الإفك، فكان مما قال:

فإن قيل: فما بالُ رسول الله ﷺ توقَّفَ في أمرها، وسألَ عنها وبحثَ، واستشارَ، وهو أعرفُ بالله، وبمنزلته عندهُ، وبما يليقُ به، وهلا قال: سُبحانَكَ هذا بُهتَان عظيم، كما قاله فضلاءُ الصحابة؟

فالجواب: إن هذا من تمام الحكمِ الباهرةِ التي جعل الله هذهِ القصةَ سَببًا لهَا وامتحَانًا وابتلاءً لرسولهِ ﷺ ولجميعِ الأمَّة إلىٰ يومِ القيامةِ، ليرفعَ بهذهِ

(١) انظر حديث الإفك الذي أخرجه البخاري (٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠).

القِصَّة أقْوامًا ، ويضَع بِهَا آخرِينَ ، ويَزيدَ اللهُ الذين اهتدَوْا هُدًىٰ وإيمانًا ، ولا يزيدُ الظالمين إلا خسارًا ، واقتضىٰ تمامُ الامتحان والابتلاء أن حُبِسَ عن رسول الله ﷺ الوحيُ شهرًا في شأنها ، لا يُوحىٰ إليه في ذلك شيء لتتمَّ حِكمتُهُ التي قدّرها وقضَاهَا وتظهرَ علىٰ أكمل الوجوه ، ويزداد المؤمنونَ الصادِقُونَ إيمانًا وثباتًا علىٰ العدل والصدق ، وحسن الظنِّ بالله ورسوله ، وأهلِ بيته ، والصِّدِّيقينَ مِن عباده ، ويزدادَ المنافقون إفكًا ونفاقًا ، ويُظهرَ لِرَسوله وللمؤمنين سرائرهم ، ولتتم العبودية المرادة مِن الصدِّيقة وأبويها ، وتتمَّ نعمةُ الله عليهم ، ولتشتد الفاقةُ والرغبةُ منها ومِن أبويها ، والافتقارُ إلىٰ الله والذلُّ له ، وحُسن الظنِّ به ، والرَّجَاء لَه ، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين ، وتيأسَ مِن حصول النُّصرةِ والفرج علىٰ يد أحد من الخلق ، ولهذا وفّت هذا المقام حقَّه ، لما قال لها أبواها : قُومي إليه ، وقد أنزلَ اللهُ عليه براءتَها ، فقالت : والله لا أقُومُ إليهِ ، ولا أحْمَدُ إلا الله ، هُو الَّذِي أنْزَلَ بَرَاءَتِي .

وأيضًا فكان من حكمة حبْسِ الوحي شهراً ، أن القضية مُحِّصَتْ وتمحَّصتْ ، واستشرفَت قلوب المؤمنين أعظَم استشرافٍ إلىٰ ما يُوحيه اللهُ إلىٰ رسولهِ فيها ، وتطلَّعت إلىٰ ذلك غايةَ التطلُّع ، فوافىٰ الوحي أُحوجَ ما كان إليه رسولُ الله ﷺ ، وأهلُ بيته ، والصدِّيقُ وأهلُه ، وأصحابه والمؤمنون ، فورد عليهم ورودَ الغيث علىٰ الأرضِ أحوجَ ما كانت إليه ، فوقع منهم أعظمَ موقعٍ وألطَفَه ، وسُرُّوا به أتمَّ السُّرور ، وحصل لهم به غايةُ الهناء ، فلو أطلع اللهُ رسولَه علىٰ حقيقة الحال من أوَّلِ وَهلة ، وأنزل الوحيَ علىٰ الفور بذلك ؛ لفاتت هذه الحِكمُ وأضعافُها بل أضعافُ أضعافها .

وأيضًا فإن الله سُبحانه أحبَّ أن يُظهرَ منزلَةَ رسوله وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يُخرجَ رسولَه عن هذه القضية، ويتولَّىٰ هو بنفسه الدفاعَ والمنافحَةَ عنه، والردَّ علىٰ أعدائه، وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا يُنسب إليه، بل يكونُ هو وحدَه المتولي لذلك، الثائرَ لرسوله وأهل بيته.

وأيضًا فإن رسولَ الله ﷺ كان هو المقصودَ بالأذىٰ، والتي رُميَتْ زوجتُه، فلم يكن يليقُ به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظنَّ المقاربَ للعلم ببراءتها، ولم يظنَّ بها سُوءًا قطُّ، وحاشاه، وحاشاها، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: «**مَنْ يعذرُني في رَجل بلغَني أذاهُ في أهلي، والله ما عَلمتُ على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا وما كانَ يدخلُ علَى أهْلي إلا معي**» فكان عنده مِنَ القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لِكمال صبره وثباته، ورفقه، وحُسن ظنه بربه، وثقته به، وفَّىٰ مقام الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقَّه، حتىٰ جاءه الوحي بما أقرَّ عينَه، وسرَّ قلبَه، وعظَّمَ قدرَه وظهر لأمته احتفالُ ربه به، واعتناؤه بشأنه.

ولما جاء الوحيُ ببراءتها، أمرَ رسولُ الله ﷺ بمن صرَّح بالإفك، فحدُّوا ثمانين جلدة، ولم يُحد الخبيثُ عبد الله بن أبي، مع أنه رأسُ أهل الإفك، فقيل: لأن الحدودَ تخفيفٌ عن أهلها وكفارة، والخبيثُ ليس أهلاً لذلك، وقد وعَدَهُ الله بالعذابِ العظيمِ في الآخرةِ، فيكفيه ذلك عن الحد. وقيل: بل كان يستوشي الحديثَ ويجمعهُ ويحكيه، ويُخرجه في قوالب من لا يُنسب إليه، وقيل: الحدُّ لا يثبتُ إلا بالإقرار، أو ببيِّنة وهو لم يُقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكُره بين أصحابه، ولم يشهدُوا عليه، ولم يكن يذكُره بين المؤمنين.

وقيل: حدُّ القذف حقُّ الآدمي، لا يُستوفى إلا بمطالبته، وإن قيل: إنه حقٌّ لله، فلا بدَّ مِن مطالبة المقذوف، وعائشة لم تطالب به ابنَ أبي.

وقيل: بل ترك حدَّه لمصلحة هي أعظمُ من إقامته، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه، وتكلمِه بما يُوجب قتله مرارًا، وهي تأليفُ قومه، وعدمُ تنفيرهم عن الإسلام، فإنه كان مطاعًا فيهم، رئيسًا عليهم، فلم تُؤمن إثارةُ الفتنة في حدِّه، ولعله تُرِكَ لهذِهِ الوجوهِ كلِّهَا.

فجلد مسْطَح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحَمْنَة بنتَ جَحْشٍ، وهؤلاء من المؤمنين الصَّادقين تطهيرًا لهم وتكفيرًا، وترك عبد الله بن أبي إذًا، فليس هو من أهل ذاك.

وفضلاً عما ذُكر فقد ذكر العلماء ما يقارب مائة فائدة في حديث الإفك ذكرنا أكثرها في تفسير سورة النور فليراجعها من شاء.

وانظر إلى هذا الأجر الذي يُعطاه أهل المصائب إن هم صبروا واحتسبوا واسترجعوا

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

ورد عن أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - أنه قال في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، نعم العدلان ونعم العلاوة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

العدلان هما: (الصلوات من ربهم والرحمة) وهما بمنزلة الحملين (الثُقْلين) يوضع كل واحد منهما في ناحية من الجمل.

والعلاوة: وهي ما يوضع على السنام، والمعنى: أن الصلوات من الرب تعادل قولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ والرحمة تعادل قوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، فأعطوا ما يعادل قولهم ثم زيدوا بعلاوة وهي: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]،

والمعنى: أنهم أعطوا ثواب أعمالهم وزيدوا أيضًا.

أما الأثر فأخرجه البخاري معلقًا في كتاب «الجنائز» (مع الفتح ٣/ ٢٠٥) (باب الصبر عند الصدمة الأولى)، وقال عمر رضي الله عنه: نعم العدلان ونعم العلاوة ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ...﴾ الآية.

وشهادة حظي بها نبي الله أيوب عليه السلام من ربه الكريم الرحيم لما صبر أيوب واحتسب:

قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]

فما أجمل هذا، وما أحسنه فلو قدمنا أنفسنا وما نملكه من الدنيا حتى نحظى بواحدةٍ من هذه التزكيات لكانت التزكية خيراً لنا.

ومن فوائد المصائب: أن الشخص قد يأتيه مع المصيبة ما هو أعظم مما فاته بسببها.

فقد تطلق امرأةٌ صالحةٌ ظُلمًا من زوج وبغيًا منه عليها، وربما يدخر لها عظيم الأجر وجميل الثواب في الدنيا فضلاً عن الآخرة.

وقد يموت عن امرأة زوجٌ وتحزن عليه أشد الحزن وربها كتب لها أن تتزوج بآخر هو أفضل دينًا ودُنيا ترزق منه الولد الصالح وتدخل معه فسيح الجنان.

فسبحان الله ، **فقدت أم سلمة زوجها أبا سلمة بموته عنها فحزنت لذلك حُزنًا.** ولكن ما الذي ادخره الله لها؟ لقد تزوجها رسول الله ﷺ ، وها هو الحديث بذلك : أخرج مسلم [(١)] في «صحيحه» من حديث أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون،اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها**».

قلت: فلما مات أبو سلمة قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة ، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ، ثم إني قلتها : فأخلف الله لي رسول الله ﷺ .

قالت : أرسل إليَّ رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت : إن لي بنتًا وأنا غيور فقال : «**أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يَذهب بالغيرة**» .

وصفية بنت حيي رضي الله عنها، قتل أبوها حيي بن أخطب اليهودي ، وكان في ذلك خيرٌ لها فلو كانت مع أبيها ، لم يمت لتهودت وماتت على يهوديتها ـ إلا أن يشاء الله ـ لكن قتل أبوها وتزوجها رسولنا محمد ﷺ فأصبحت أمًّا للمؤمنين رضي الله تعالى عنها .

أخرج الإمام مسلم [(٢)] ـ رحمه الله تعالى ـ من حديث أنس قال : كنت ردف أبي طلحة يوم خيبر وقدمي تمس قدم رسول الله ﷺ قال : فأتيناهم

---

(١) مسلم ص (٦٣١) .

(٢) مسلم (٣/ ٥٩٢) .

حين بزغت الشمس وقد أخرجوا مواشيهم وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومرورهم فقالوا: محمد والخميس. قال: وقال رسول الله ﷺ: «**خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين**» قال: وهزمهم الله ـ عز وجل ـ ووقعت في سهم دحية جاريةٌ جميلة، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس، ثم دفعها إلى أم سليم تصنِّعها له وتُهيئُها (قال وأحسبه قال: وتعتد في بيتها، وهي صفية بنت حيي). قال: وجعل رسول الله ﷺ وليمتَها التمر والأقط والسمن، فُحِصت الأرض أفاحيص[1]، وجيء بالأنطاع فوضعت فيها، وجيء بالأقط والسمن فشبع الناس قال: وقال الناس: لا ندري أتزوجها أو اتخذها أمَّ ولد؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد، فلما أراد أن يركب حجبها فقعدَت على عجز البعير فعرفوا أنه قد تزوجها.

فلما دَنَوا من المدينة دفع رسول الله ﷺ ودفعنا، قال: فعثرت الناقة العضباء وندر[2] رسول الله ﷺ وندرت فقام فسترها وقد أشرفت النساء فقلن: أبعد الله اليهودية قال: قلت: يا أبا حمزة أوَقَعَ رسول الله ﷺ؟ قال: إي والله لقد وقع. قال أنس: وشهدت وليمة زينب فأشبع الناس خبزاً ولحماً، وكان يبعثني فأدعو الناس، فلما فرغ قام وتبعته، فتخلف رجلان استأنس بهما الحديث لم يخرجا، فجعل يمر على نسائه فيسلم على كل واحدة منهن: «**سلام عليكم كيف أنتم يا أهل البيت؟**» فيقولون: بخير يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ فيقول: «**بخير**» فلما فرغ رجع ورجعت

---

(١) قال النووي ـ رحمه الله ـ: أي كشف التراب من أعلاها وحفرت شيئًا يسيرًا ليجعل الأنطاع في المحفور ويصب فيها السمن فيثبت ولا يخرج من جوانبها وأصل الفحص الكشف، وفحص عن الأمر، وفحص الطائر لبيضه، والأفاحيص جمع أفحوص.

(٢) ندر أي: سقط.

معه فلما بلغ الباب إذا هو بالرجلين قد استأنس بهما الحديث فلما رأياه قد رجع قاما فخرجا. فوالله ما أدري أنا أخبرته أم أُنزل عليه الوحي بأنهما قد خرجا فرجع ورجعت معه، فلما وضع رجله في أُسكفة الباب أرخى الحجاب بيني وبينه وأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿**لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ** ...﴾ الآية [الأحزاب: ٥٣].

وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية: ابتليت بقتل أبيها ووقعت في السبي مع من وقع من النساء في السبي وكاتبت عن نفسها كي تصبح حُرةً وجاءت النبي تستعينه في كتابتها فماذا كان؟ لقد تزوجها رسولنا محمد ﷺ.

قال ابن إسحاق - رحمه الله - حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عمه عروة بن الزبير عن خالته عائشة قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية في القسم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عمٍّ له فكاتبته على نفسها، وكانت امرأةٌ حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسولَ الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم - تستعينه في كتابتها قالت عائشة: فوالله ما هي إلا أن رأيتها فكرهتها وقلت: يرى منها ما قد رأيت. فلما دخلَت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلايا ما لم يخف عليك، وقد كاتبت على نفسي فأعني على كتابتي فقال: «**أو خير من ذلك، أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك**»(١) فقالت: نعم، ففعلَ ذلك. فبلغ الناسَ أنه قد تزوجها فقالوا: أصهار رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق، فلقد أعتق الله

---

(١) كما نقل الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٢٥٧) وسنده حسن.

بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها.

وهؤلاء المرضى وأهل الابتلاء بالضر في الأبدان:

انظر إلى المرض والبلاء كيف يذهب بذنوبهم وقد تقدمت طائفة من الأحاديث في ذلك؟!.

وأخرج الترمذي (١) بإسنادٍ حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله؛ حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**».

وهذا الذي ابُتلي بفقدان عينه أو عينيه معًا، انظر إلى عظيم الأجر المُدخر المعدِّ له، إن هو صبر واحتسب ففي الحديث: «**من ابتليته بحبيبتيه فصبر عوضته خيراً منهما الجنة**».

وأم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها: طُلقت من زوجها زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ، فماذا كان لما طلقت من زيد بعد مزيدٍ من نصح الرسول ﷺ لزيد بقوله: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**»؟ ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، طُلقت زينب من زيد - رضي الله عنها - فتزوجها رسول الله ﷺ، زوجها له ربنا سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فأصبحت أمًّا للمؤمنين رضي الله عنها.

أخرج الإمام مسلم (٢) في «صحيحه» من حديث أنس رضي الله عنه قال:

---

(١) الترمذي (حديث ٢٣٩٩).

(٢) مسلم (٣/٥٩٦).

لما انقضت عدةُ زينب قال رسول الله ﷺ لزيد : فاذكرها عليَّ قال : فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي فقلت : يا زينب أرسَل رسولُ الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئًا حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن قال : فقال : ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار ، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتتبع حُجَر نسائه يسلم عليهن ويقلن : يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ قال : فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب قال : ووعظ القوم بما وعظوا به .

وهذا الذي ابتلى بفقدان ولد حبيب عزيز عليه، أو ماتت ابنته الصغيرة فحزن عليه وتألم، انظر إلى ما أُعد له من الأجر إن صبر واحتسب .

أخرج البخاري في «صحيحه» (١) : عن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : **«ما من الناس من مسلم يُتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»** .

وأخرج أيضًا (٢) عن أبي سعيد رضي الله عنه : **«أن النساء قلن للنبي ﷺ: اجعل لنا يومًا، فوعظهن وقال: أيُّما امرأة ماتَ لها ثلاثةٌ من الولدِ كانوا لها**

---

(١) البخاري (١٢٤٨) .

(٢) البخاري (١٢٤٩)، ومسلم (٢٦٣٣) .

حِجابًا من النار. قالت امرأة : واثنان؟ قال: واثنان» .

وأخرج كذلك [(١)] عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : «**لا يموتُ لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلةَ القسم**» قال أبو عبد الله : ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا**﴾ .

وأخرج البخاري [(*)] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : «**يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء**[(٢)] **إذا قبضت صفيَّه** [(٣)] **من أهل الدُّنيا ثم احتَسَبَه** [(٤)] **إلا الجنة**» .

وأخرج الإمام أحمد [(٥)] في «مسنده» بسند حسن عن بعض أصحاب النبي ﷺ : «**يقال للولدان يوم القيامة: ادخلوا الجنة**» قال «**فيقولون: يا رب حتى يدخل آباؤنا وأمهاتنا**» قال : «**فيأتون**» قال : «**فيقول الله عز وجل: ما لي أراهم محبنطئين ادخلوا الجنة**» قال : «**فيقولون: يا رب آباؤنا وأمهاتنا**» قال: «**فيقول: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم**» .

وعند ابن ماجه [(٦)] بسندٍ حسن عن أبي أمامة عن النبي ـ صلى الله عليه

---

(١) البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٤) .

(*) البخاري حديث (٦٤٢٤) .

(٢) جزاء : أي ثواب .

(٣) صفيه : قال الحافظ : هو الحبيب المصافي كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان، والمراد بالقبض : قبض روحه وهو الموت .

(٤) الاحتساب : هو طلب الأجر من الله تعالى خالصًا . قاله الحافظ ابن حجر . وقد ورد في هذا الباب قول الله تعالى : ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ [البقرة : ١٥٥ـ١٥٧] .

(٥) أحمد (٤/ ١٠٥) .

(٦) ابن ماجه (١٥٩٧) .

وعلىٰ آله وسلم ـ قال: «يقول الله سبحانه: ابن آدم إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى لم أرض ثوابًا دون الجنة».

وأخرج مسلم[(١)] من طريق أبي حسان قالَ: قلت لأبي هريرةَ: إنهُ قدْ ماتَ لي ابنان فما أنت محدثِي عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيب به أنفسنا عن موتانا؟ قالَ: قالَ: نعمْ «صغارُهم دعاميصُ الجنَّة يتلقَّى أحدُهُم أباهُ ـ أوقالَ: أبويَه ـ فيأخذُ بثوبه ـ أو قال: بيده ـ كما آخُذُ أنا بصنفة ثوبكَ هذا. فلا يتناهَى ـ أو قالَ: فلا ينتهي ـ حتى يدخلهُ اللهُ وأباهُ الجنَّةَ».

وأخرج مسلم أيضًا عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «أتت امرأة النبي ﷺ بصبي لها فقالت: يا نبي الله! ادع الله له، فلقد دفنت ثلاثة. قال: «دفنت ثلاثة؟» قالت: نعم. قال: «لقد احتظرت بحظار شديد من النار».

وفي رواية أخرىٰ عند مسلم أيضًا جاءت امرأة إلىٰ النبي ﷺ بابن لهَا فقالت: «يا رسول الله! إنه يشتكي وإني أخاف عليه قد دفنت ثلاثةً قال: «لقد احتظرت بحظار شديد من النار»[(٢)].

هذا، وقد أورد القاسمي في «محاسن التأويل» نقلاً عن العز بن عبد السلام ـ رحمه الله تعالى ـ جملة من فوائد المحن والابتلاءات فقال:

وللإمام عز الدين محمد بن عبد السلام ـ رحمه الله تعالىٰ ـ كلام علىٰ فوائد المحن والرزايا يحسن إيراده هنا. قال: عليه الرحمة: للمصائب والبلايا والمحن والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٥).

(٢) مسلم (٢٦٣٦).

أحدها: معرفة عز الربوبية وقهرها .

والثاني: معرفة ذلة العبودية وكسرها . وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ الَّذين إذا أَصابَتْهُم مُّصيبَةٌ قَالُوا إنَّا للَّه وَإنَّا إلَيْه راجعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] ، اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده وأنهم راجعون إلىٰ حكمه وتدبيره وقضائه وتقديره لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه .

والثالثة: الإخلاص لله تعالىٰ إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه ، ولا معتمد في كشفها إلا عليه : ﴿ وَإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فَلا كَاشفَ لَهُ إلا هُوَ ﴾ [الأنعام : ١٧] ، ﴿ فَإذَا رَكبُوا في الْفُلْك دَعَوُا اللَّهَ مُخْلصينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

الرابعة: الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ والإقبال عليه : ﴿ وَإذَا مَسَّ الإنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنيبًا إلَيْه ﴾ [الزمر : ٨] .

الخامسة: التضرع والدعاء : ﴿ وَإذَا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا ﴾ [يونس : ١٢] ، ﴿ وَإذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في الْبَحْر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إلا إيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، ﴿ بَلْ إيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشفُ مَا تَدْعُونَ إلَيْه إن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْركُونَ ﴾ [الأنعام : ٤١] ، ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَات الْبَرِّ وَالْبَحْر تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئنْ أَنجَانَا منْ هَذه لَنَكُونَنَّ منَ الشَّاكرينَ ﴾ [الأنعام : ٦٣] .

السادسة: الحلم ممن صدرت عنه المصيبة : ﴿ إنَّ إبْرَاهيمَ لأَوَّاهٌ حَليمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

«إن فيك لخصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة» (١)، وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب في صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم.

السابعة: العفو عن جانيها: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

الثامنة: الصبر عليها، وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، «وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» (٢).

التاسعة: الفرح بها لأجل فوائدها. قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده! إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء». وقال ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ: حبذا المكروهان: الموت والفقر. وإنما فرحوا بها إذ لا وقع لشدتها ومرارتها بالنسبة إلى ثمرتها وفائدتها، كما يفرح من عظمت أدواؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها، مع تجرعه لمرارتها.

العاشرة: الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها، كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه، المانع من شهواته، لما يتوقع في ذلك من البرء والشفاء.

---

(١) أخرج مسلم (حديث ١٧) ص (٤٨) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال للأشج ـ أشج عبد القيس ـ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة».

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٤٦٩)، ومسلم (حديث ١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يُعِفُّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر».

الحادية عشرة: تمحيصها للذنوب والخطايا: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ولا يصيب المؤمن وَصب ولا نصب حتى الهم يهمه والشوكة يشاكها إلا كُفِّرَ به من سيئاته.

الثانية عشرة: رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم. فالناس معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء واشكروا الله تعالى على العافية، وإنما يرحم العشاق من عشق.

الثالثة عشرة: معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها. فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدها.

الرابعة عشرة: ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها.

الخامسة عشرة: ما في طيها من الفوائد الخفية: ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١].

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم كان في طي تلك البلية أن أخدمها هاجر؛ فولدت إسماعيل لإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين. فأعظم بذلك من خير كان في طي تلك البلية!

وقد قيل:

كم نعمة مطوية ... لك بين أثناء المصائب

وقال آخر:

رُبَّ مبغوض كريه ... فيه لله لطائف

السادسة عشرة: أن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر ، فإن النمرود، لو كان فقيراً سقيماً ، فاقد السمع والبصر، لما حاج إبراهيم في ربه، لكن حمله بطر المُلك على ذلك .

وقد علل الله سبحانه وتعالى محاجته بإتيانه الملك، ولو ابتلي فرعون بمثل ذلك لما قال: ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى** ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿ **وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِه** ﴾ [التوبة: ٧٤]، ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ [العلق: ٦، ٧]، ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ** ﴾ [الشورى: ٢٧]، ﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيه** ﴾ [هود: ١١٦]، ﴿ **لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيه** ﴾ [الجن: ١٦، ١٧]. ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ [سبأ: ٣٤].

والفقراء والضعفاء هم الأولياء وأتباع الأنبياء. ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء الأنبياء . ثم الأمثل فالأمثل. نُسبُوا إلى الجنون والسحر والكهانة واستهزئ بهم وسخر منهم : ﴿ **فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا** ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقيل لنا: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ١٥٥]، ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا** ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، كالذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وتغربوا عن أوطانهم. وكثر عناؤهم. واشتد بلاؤهم وتكاثر أعداؤهم فغُلبوا في بعض المواطن، وقتل منهم بأحد وبئر معونة من قتل .

وشج وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وقتل أعزاؤه ومُثِّل بهم. فشمت أعداؤه واغتم أولياؤه وابتلوا يوم الخندق، وزلزلوا زلزالاً شديداً، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وكانوا في خوف دائم، وعرى لازم، وفقر مدقع حتى شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع. ولم يشبع سيد الأولين والآخرين من خبز بر في يوم مرتين.

وأوذي بأنواع الأذية، حتى قذفوا أحب أهله إليه، ثم ابتلي في آخر الأمر بمسيلمة وطليحة والعنسي، ولقي هو وأصحابه في جيش العسرة ما لقوه، ومات ودرعه عند يهودي على آصُعٍ من شعير، ولم تزل الأنبياء والصالحون يُتعهدون بالبلاء الوقت بالوقت (يُبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان صلباً في دينه شدد في بلائه. وقد كان أحدهم يوضع المنشار على مفرقه فلا يصده ذلك عن دينه) وقال عليه الصلاة والسلام: «**مثل المؤمن مثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء**» وقال عليه الصلاة والسلام: «**مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيؤها الريح، تصرعها مرة وتعدلها مرة حتى تهيج**» فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله عز وجل. وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ**﴾ [يونس:١٢]، فلأجل ذلك تقللوا في المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك؛ ليكونوا على حالةٍ توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى ـ عز وجل ـ والإقبال عليه.

السابعة عشرة: الرضا الموجب لرضوان الله تعالى. فإن المصائب تنزل بالبر والفاجر فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة، ومن

رضيها فله الرضا. والرضا أفضل من الجنة وما فيها، لقوله تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أي: من جنات عدن ومساكنها الطيبة.

فهذه نبذة مما حضرنا من فوائد البلوىٰ، ونحن نسأل الله تعالىٰ العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فلسنا من رجال البلوىٰ.

وفقنا الله تعالىٰ لما يحب ويرضىٰ وعافانا من المحن والرزايا بمنه وكرمه آمين.

* * *

وختامًا

ومع كل الذي ذُكر من فوائد البلاء، فعلىٰ المرء أن يسأل الله العافية؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «**إن السعيد لمن جُنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جُنب الفتن، ولمن ابتلي فصبر فواهًا**»[١]. وقد كان من أكثر دعاء النبي ﷺ: «﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾» [البقرة: ٢٠١].

ثم إن الفرار من الفتن قد دلت عليه جملة أدلة، فمن ذلك: أخرج البخاري[٢] في «صحيحه» من حديث أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفتن**».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًّا، نسأل الله العصمة من الزلل، والنجاة من الفتن، كما نسأله أن يختم لنا عموم أعمالنا، ودنيانا بخير وإيمان، وأن يتوفانا علىٰ الإسلام، والإيمان، والإحسان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصل اللهم علىٰ نبينا محمد وسلم سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك!.

وكتبه

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوي

---

(١) حسن، أخرجه أبو داود (٤٢٦٣).

(٢) البخاري (حديث١٩).

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة